اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق

وفاء عزيز أوغلي

غريبة فوق أهداب دمشق

قصص

وفاء عزيز أوغلي

غريبة
فوق أهداب دمشق

- قصص -

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٩

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail : unecriv@net.sy

الانترنيت : Internet : : aru@net.sy

تصميم الغلاف للفنان : عبدالله أبو راشد

□□

إهـــداء..

حين أنوء بمشقة الحياة، وتمتد يد الظلم لتضمنى.

حين يرهقنى صخب العالم حولي،

وأرى أحلامي تتهشم

أمام عينى.. يلذ لي أنْ ألوذ بكما وأحتمي.

فإليكما يا أغلى وأصدق حب.

أهدي كتابي

أبي وأمي

ذلك المساء..

تقمع الحزن المتراكم في مآقيها- تقهر القلق، تكبت رغبة ملحة للصراخ أو البكاء أو الهروب، ولكنها تستسلم لليأس "لا فائدة مهزومة دائماً أنا، ومقهورة، والصبر والانتظار في حياتي قدر"

تضع هيفاء بجانبها على الرصيف حقيبة مُتخمة بما استطاعت الحصول عليه من حاجات ضرورية للبيت، وتتلفع بشالها المتآكل وهي تُنصت لجارتها التي بدأت قبلها موكب الانتظار. يترمد وجهها الشاحب، فتستنجد بأي حديث يُنسيها قلقها المضني.

- التجول في الأسواق غدا هذه الأيام تسولاً مبطناً واحتضاراً.

"كل ما كنت أكره أن أفعله أصبح واجباً.. حتى الحديث الممجوج التافه. ليت حياتي تعود سهلة كما كانت".

– هذا صحيح.

– أتعلمين لقد مضى نصف ساعة وأنا هنا، ولم تصل سوى مركبة واحدة للجادات العليا تغص حتى أبوابها بالركاب. أرجو ألا نتأخر أكثر من ذلك.

– أرجو ذلك.

"الأولاد وحدهم، وزوجي لن تمر ساعة إلا ويصل إلى البيت..."

– كل شيء أصبح غالياً حتى ملح الليمون الذي أصبح بديلاً لليمون في هذا الزمان سعره مرتفع جدا.. أتدرين بكم اشتريته..؟.

وتختنق الكلمات في حلقها الجاف، فتمعن في الصمت، وتتهاوى معاني الأشياء حولها، فتشعر وكأن الزمان كله انحصر في لحظة قدوم مركبة تُنهي مأساتها.

تترامى إلى سمعها حشرجة المركبة القادمة. تتهادى بركابها.

تقف العربة المحمّلة. تحشر نفسها داخلها لتصبح جزءا من الكتلة البشرية المتراصة.

تصل الحافلة إلى الموقف تنزل وتقف بحملها تتأمل بيتها الصغير المتربع على قمة الجبل، وتشعر بالفزع وهي تفكر كيف ستصل إليه. تسحب جسدها المنهك صعوداً

إليه.. تبدأ عملها، والزمن يطاردها. وكالمعتاد تعمل كآلة مبرمجة أعمالاً يومية لا جديد فيها.

مجرد هرولة خلف سراب، ولا أمل بعد كل تعبها في شيء.. لن تنزل عن قمة جبلها هذا إلى عالم مَنْ يعيشون في سفحه حيث الدنيا والحياة الحقيقية، فراتب زوجها لن يزيد فلا شهادة عالية لديه، ولا رأس مال. ستظل مقيمة على قمة قاسيون طيلة حياتها. ولكنها مصرَّة أن تحمي أولادها هذا المصير. تنظر إليهم يلعبون لا يعون ما يحدث. تنادي بحزم، "ليحمل كل منكم كتبه ويأتي إلي" يهرول الصغار الثلاثة إليها تدرّس هذا وتشرح لذاك. تنهي مهمتها اليومية. واجباتها كلها، وتسأل نفسها ككل يوم. "وأنا أين حقوقي".

وينتهي اليوم كالأمس، كالغد، وتجلس ككل يوم في انتظاره.. تتجاوز التاسعة مساءً. ليس من عادته أن يتأخر.

في قمة تألقها بثوبها المسائي اليتيم. اختاره بنفسه يوماً. قد يكون مسربلاً بالسأم من رؤيته كل ليلة، ولكنه لا يجرؤ على الكلام، فسيبتلي بشراء آخر وهو لا يستطيع، وقد تكون معاناتها أكبر، ولكنها أيضاً عجزاً لا تفكر، والاتكاء على الأحزان عبث، فزوجها موظف شريف أمين يعمل دوامين، والغلاء غول يقف على أبواب بيوت الفقراء يخطف الأمل كلما تراءى، ويمزق الأحلام.

"قالت أمها يوماً.. عطر المرأة الماء والصابون أولاً ثم العطور الصناعية.. لم تعلم يومها أنه سيغدو عطرها أولاً وثانياً وأخيراً."

ساقه القدر إليها، فأصغت لبريق الحب في عينيه، وتناست طموحاتها كأنثى تريد أن تحصل على كل ما حلمت به، أو بعضاً منه. لم تعترض على دخله المحدود، ولم تفكر في معنى هذا التعبير، ولا ما يمكن أن يعنيه مستقبلاً من حرمان وقهر.. لم تُفكر، ولم تعترض. أعجبها وحسب فوافقت، وحين صعد بها إلى قمة الجبل للمرة الأولى بعد الزواج قالت له وهي تتأمل عظمة قاسيون وجماله، والخضرة تغطي رأسه بتنسيق إلهي بديع، وتعبُّ من الهواء النقي ملء صدرها.. لا سعادة في الدنيا تعادل سعادتي

قال.. ألن تندمي؟

قالت.. وأنا معك لن أشعر إلا بالسعادة.

تضع الخيط في ثقب الإبرة، وتمسك بثوب ابنتها ترفو حواشيه.

تفكر ونظرة حازمة تتألق في عينيها "لابد من وجود حل لكل ما تعانيه. الصبر ليس حلاً، ولا الانتظار. سوف تبحث الأمر معه هذه الليلة، ولن تسمح بأي تأجيل، زوجها

تحبه فمعاملته لها رائعة يتعب ويضحي ويهب دون حساب، ولكن أيكفي الحب وحده؟

وهل سيكون بمقدورها البقاء على سفح هذا الجبل عمرها كله؟

وهل سترضى لأولادها بالمصير ذاته؟

وقاسيون تحبه، ولكنها تحبه شاهداً على عظمة مدينتها. تحبه مكاناً جميلاً مهيباً قانعاً وحسب.. أما أن تبقى مقيمة أبداً على قمته. تحيا حياته، وتكتسب طباعه، وتموت وتدفن فيه فهذا ما لا يمكنها قبوله. لذلك يجب أن تفارقه. تدعه لصبره واحتماله ورضاه، وتنزل إلى الدنيا. إلى الناس. إلى الحياة هي وأسرتها.

اليوم وحين يصل زوجها ستبحث الأمر معه فلا بد من حل. الأعمال كثيرة في المدينة، والناس كلهم يعملون ويحصلون على المال. ستخبره عن جارهم الذي كان موظفاً بسيطاً في إحدى دوائر الدولة ثم أنعم الله عليه، فهجر بيته المجاور لهم، ونزل إلى الدنيا. اشترى بيتاً، وأسسه، ويفكر بشراء سيارة أجره أو "ميكرو باص" كما قالت زوجته أمس حين أتت لزيارتها لزيادة دخله، ولكنه لن يدع الوظيفة التي تدر عليه من المال الكثير. الكثير. هو لا يحمل شهادة جامعية كزوجها، ولكنه يعرف "من أين تؤكل الكتف". ستحدثه عنه، وترجوه أن يسأله ليتعلم. قالت

لها جارتها أنَّ العمل كثير، والمال أكثر، ولكن الشاطر وحده الذي يعرف كيف يعيش، تحمل الملابس التي تمَّ رفوها لمكانها في غرفة الأطفال. تنظر إلى وجوههم المطمئنة. تفكر بحزن.. لو يعلمون ما يخبئ لهم القدر "تسمع صوت مفتاحه بالباب. تهرع إليه. في قلبها سخط، وفي رأسها ثورة، وملامح وجهها تحمل التصميم والإصرار. تنظر إلى عينيه الطافحين بمزيج غريب من الحيرة، والألم، واللامبالاة والإجهاد، تشعر أنها منساقة إلى المجهول القابع في النظرة الطفلة لعينيه، وأنها مصادره أسيره، وأنها تحبه كما هو. تحبه.

تلتجئ إلى صدره لتخفي صراخ أعماقها...

يضمها. تهمس.. تأخرت وشغلتني عليك.

يزول انقباضها، ويتلاشى ضجرها، ويتغلغل السكون إلى جسدها المرهق فتصغي لصوت يهمس لها.. غداً فجر جديد.

والفجر موعد.

غريبة.. فوق أهداب دمشق

الرياح تنوح وتصفر في الخارج..

وأنا وحيدة بالرغم من وجودهم.. خائفة ملتجئة إلى قوقعة الصمت هرباً من حديثهم. يغطي السواد جسدي، وينسرب إلى عقلي وروحي وكياني كله.

يده بين يدي، وصدى صوته في أذني..

قبل ساعات كان وجوده يملأ المكان حياة، والآن لا شيء سوى الصمت وتحركاتهم السريعة المحدودة، وهمساتهم بين حين وآخر لإعطاء التعليمات.

هذه اللوحات يجب أن تُنزع..

الكراسي توضع هنا، وتلك هناك..

يجب الاتصال بهذا و. و. و...

الموت.. الموت رهبة. خوف وضياع.

الموت.. اغتيال حياة، واستقرار، وأمان..

الموت.. مرارة. مراره...

قالوا.. لا تدخلي إليه. الأفضل أنْ...

ولم أسمع بقية التحذير. يده باردة.. كان الدفء يغمر جسدي كله حين تمتد هذه اليد لتداعبه. أتقلص بجانبه "أوه لماذا أنت صامت هكذا ومستسلم. لماذا؟" أختلج حزناً لرؤية الرجل ضعيفاً عاجزاً، وهو الذي خُلق ليكون قوياً قادراً.

يُفتح الباب. أسمع كلمات.. ثقل يمنعني من الحركة. تتقدم. تمسك يدي. يرتفع جسدي ويسير معها. مسكونة بالغربة أخطو بينهم. أنام. أصحو. أجلس بينهم كما يريدون أسمعهم يخططون. يأمرون.. لا بد. يجب. لا يجوز. إياكِ. عيب. حرام.. وينتهي كل شيء، ويعم السكون.

لقد مضى زوجي. مضى إلى المجهول، وبقيت وحيده. أسيرة بين جدران غرفتي، وأخواته الثلاث يحتلون البيت. أصبحت أشعر بالغثيان كلما سمعت أصواتهم.. ماذا يريدون..؟ الغنائم.؟ لو كان لي ولد لما حدث هذا كله..

رفض بشدة أنْ ننجب قال.. سنوات عمري الباقية لن تكفي.

أضم حزني وخيبتي، وأجوب المكان بحثاً عن هدف لا أعرفه، ولا أملك إلا حيرتي وعجزي. منذ وفاته والبيت أصبح لهم. أأقاتل لأجله؟ أأطالب بحقي؟ ولكن أأستطيع. سؤال أطرحه على نفسي وأعرف الإجابة. لا. لن أستطيع. لن أستطيع. فأنا لم أتغير. لم تغيرني السنين ولم يكن بإمكانها أن تفعل أي شيء لي، فأنا أسيرة الكلمة الطيبة، والقلب المحب. "سأدخل كلية الآداب هي أمنيتي، ويقول أبي بحب.. لا يا ابنتي.. المحاماة أشرف مهنة.. وكان الزواج هو البديل. رجل يكبرني بسنوات متعلم ولديه من المال الكثير مما يكفل لي الحياة المرفهة المريحة، وهذا هو المهم. ورضيت أنابه. رضيت. كانت أفكارهم مغروسة في عقلي "الزواج في مجتمعنا فرص. وكلما ازداد عمر المرأة قلَّ راغبوها.. ترانا سُلعاً.؟"

واستأنف الزوج بحب أيضاً عملية الوصاية فهو الأكبر والأعقل، وبقيت أنا تابعاً ينفذ ما يفكر به، ويخطط له"

غريبة في بيت كنت أعتقد أنني أملكه. أكبت الغضب الكامن في أعماقي وأنا ألوب في صحراء فكري. تعوَّدت جدران بيتي. تعودت تقبُّل الواقع ومعايشته. تعودت التوحد والتمزق بصمت، ولكنني تعودت كل هذا لأجله فقد كان زوجي، أما هؤلاء فلا.. ينبغي ألا أظلَّ امرأة طيِّعة "يا

ابنتي لن تخسري. الزواج تنازل من قبل أحد الطرفين. وغالباً المتنازل هو المرأة".

أخرج من غرفتي. أجد الثلاث في انتظاري وقبل أن أفتح فمي لأقول كلمة امتدت يد إحداهن إليّ ببضع أوراق فضضتها وقرأت فيه قرار وأدي.

وصيته، والبنود الثلاثة. لا زواج، ولا عمل، وبقاء أخواته الثلاث معي. تناثرت من يدي الأوراق، واغتيلت في فمي كل الكلمات.

متخمة بالعجز وبالتساؤلات وبالخوف المتقوقع داخل جمجمتي منذ الأزل.

مشاعري تجاه الواقع الذي أعاينه ضبابية. حرب مروِّعة تزلزل كياني كله، وتهشِّم القيم التي آمنت بها، وكلمة لماذا كالمطرقة تدق داخل رأسي.

ماذا ينفع المال والعقار وأنا داخل أسوار سجن؟

ماله لن يهبه لرجل آخر. أي رجل وأي مال يا زوجي العزيز؟ ما عرفتني قط.

خمس سنوات نتلفع شالاً واحداً، ونعزف لحن حياتنا معاً، وما عرفتني؟

خمس سنوات.. ألا تكفي؟

لماذا أردت محوها من ذاكرة زماني.؟

ليتك ما دست تلك الذكريات بكلمات. أمن أجل المال؟

أغرق تشنجي وحزني بالصمت. أجعله قيدي لساعات. لأيام. لست أدري. ولكنني بعدها شعرت أنني بحاجة لزيارته. حملت حقيبتي وخرجت. استقبلتني عيونهم المشدوهة، ووجوههم الشاحبة، وسواد يملأ البيت.

فتحت الباب الخارجي لأمضي. لحقت بي إحداهن. قالت.. لا يجوز. بقي عشرة أيام. حرام. انتظري.

أرى خيالها بجانبي. أقف لحظة بجوار سيارتنا. بل سيارته. أبتعد.

أشير لسيارة أجره. نصعد معاً وأعطيه العنوان. الدحداح. أشعر باضطراب وأنا أسير في طريقي إليه. أقف مشدوهة. أحملق بقبرين متلاصقين أحدهما يحمل اسمه، والآخر يحمل الحرفين الأولين لإسمي، وتاريخاً لوفاتي. لقد حدد لوفاتنا يوماً واحداً.

تُراه أوصى بكتابه هذا تفاؤلاً؟ وتذكرت للحظة حكاية لجدتي سمعناها صغاراً عن جنّي أحبَّ إنسية حباً أتعس حياته. كان يخاف أن يفقدها إنْ رأت إنسياً مثلها وأحبته، فحوّلها إلى ثمرة والتهمها.

أتذكر وجودها. أنظر إلى وجهها فلا أرى أي أثر للتعجب. هذه المرأة بلا مشاعر ولا ملامح. كيف أستطيع معايشتها وأختيها سنوات عمري الباقية؟

ألتجئ إلى غرفتي عشرة أيام هي كل ما تبقى من رابطة بيني وبين حياة عشتها مع من كان الأقرب والألصق.. زوجي "يا الله كم هي مقدسة رابطة الزواج وكم يمكن أن تهان.!" ببضع كلمات وارى الثرى سنوات عمر وذكريات، وبثمن بخس باعني. طعنني.

أنتظر.. أنتظر الأيام العشرة. أريد أن أبتعد عمَّا يذكّرني به، وعن الأشباح الثلاثة اللواتي يُحطن بي أينما حللت. فليرثن كل المال، وليحصلن على السعادة. الغربة في هذا البيت تكاد تقتلني كأنني لم أعش فيه يوماً.. كأنني لم أكن سيدته وصاحبته.. لا. لا هيهات لم أكن. لم أكن.

أعود إلى أهلي. إلى بيت أمضيت فيه أجمل سنوات عمري طفولتي مراهقتي. أحلامي. أعود إليه وأشعر أنني غريبة فيه. غريبة حتى عن نفسي عن أحاسيسي. غرفتي أُعيد ترتيبها كما كانت قبل أن أغادرها. أمي. أبي. إخوتي رعاية واهتمام ومحاولات جاهدة لأعود كما كنت. لأنسى. أنسى. ولن هيهات..

أتجرع سأمي، والحيرة المرتسمة على وجوههم، وأصعد سلم الطائرة. "ارتأينا سفرها" كانت أمي تحدِّث أخي هاتفياً "للمرة الأولى تنسلخ عن عالمها الذي عرفت وتعودت يا أحمد. لا تدعها تواجه المصاعب وحدها أرجوك"

ويضم أبي صوته إليها "إحمها من ضعفها يا ولدي"

واستسلمت من جديد لهم. لقراراتهم. وافقت وأنا راغبة فقد يكون الابتعاد والتغيير هو الحل.

أنظر من النافذة في محاولة ساذجة للانعتاق من أفكاري المضطربة.

أشعر بأني غريبة نائية. أتقوقع على نفسي كالسلحفاة. أسمع صوت الجالس إلى جانبي يقول.. أتسمحين.؟ وتمتد يده لتغلق الستارة.

ألتفت إليه. يبادرني قائلاً.. لؤي الزاهد.. مهندس نسيج.

أتأمل وجهه المبتسم. ماذا يريد.؟ أيود تسلية.؟ صداقة.؟ تعارفاً.؟

إنني يا سيدي لا أصلح لكل هذا.. فأنا امرأة مسنة تجاوزت العمر المتعارف عليه للشباب منذ سنين. قد لا

يبدو هذا على وجهي وجسدي، ولا في شهادة ميلادي، ولكن أعماقي شاخت من زمن بعيد.. بعيد.

صوته يشرّد أفكاري.. أترغبين بفنجان قهوة.؟

أتناول القدح من يده، وأنا أدقق في تعابير وجهه. هذا الرجل بسيط ومريح، ولكنني أرى في عينيه خُبثاً طفولياً محبباً. ليتني أغدو مثله. كم أود قطع شرنقتي والهروب قبل أن أختنق. لقد قررت حين غادرت بيت الزوجية أنْ أنسى. أنْ أحياء أنْ أغامر، وأجرب، وأتعلم قدر سنوات إقصائي عن الدنيا، ولكنني الآن أتساءل وأنا في بداية الطريق.. هل سأستطيع.؟ أسمع صوته من جديد. للدراسة تسافرين. أم للسياحة؟.

أفتح فمي، ولكن الكلام يصمت في أعماقي. ألتفت إليه وأنا أفكر بأسف.

سيخيب أمله ويصمت هو الآخر فأرى في تعابير وجهه المرحة إصراراً على إذابة الجليد الذي يُغطي قلبي، ووجهي، وصوتي، وكياني كله.

أسمعه يهمس.. أعتذر على إلحاحي ولكن الوقت يقتله الحوار، وقد اعتقدت أنه من الممكن أن نقترف معاً تلك الجريمة.

ضحكت رغماً عني، فابتسم بفرح وقال.. هذا نصري الأول يا سيدتي..

ساعات معه.. نسيت خلالها الزمان. حديثه المرح أنساني.

يا إلهي. أأضحك أنا، ومن القلب؟ ليت الزمان يتوقف. ليته.

شيء في داخلي كان يقول وبإلحاح لماذا لا يتوقف الزمان. لماذا؟.

مَنْ هذا الرجل؟

أليس من أبناء جنسه الباحثين أبداً عن القلق والتوتر لكل مَنْ يحيطون بهم.؟

مَنْ هذا الرجل..؟

أهوَ من كوكب آخر سيختفي في أية لحظة من سطح كوكبنا..؟

نصل مطار لندن معاً.. ونفترق.

تتكاثف الصور، وتلح عليَّ الأسئلة وأنا أجوس مجاهل دنيا غريبة. دنيا أخي في بلاد الغربة. لندن بلد مُبهر لإنسان عرف الدنيا، فكيف لمن أقصي عنها عمره كله مثلي.

الخوف غُرز في شراييني يوم ولدت، ومازال يطاردني كشيطان.

صقيع هذه البلاد وضبابها يفترش كل شيء. حتى جسدي..

أمطار. ثلوج، وزمهرير، وأنا بضياعي وحيرتي، وأخي الذي ينتظر قراري..

قال.. لن أكرر أخطاءهم. أنت مَنْ يجب أن تقرر. يجب أن تحددي لنفسك هدفاً. أنْ تعرفي ماذا تريدين. سأنتظرك، ثُم أمدُّ لك يد المساعدة إنْ طلبتها أيتها الغالية.

أفزع إلى الشارع كلما أحسست أنَّ عقلي أصبح مهترئاً عقيماً، فأشعر وذرات الثلج تتساقط فوقي بطيئة متثاقلة برغبة مجنونة للاستلقاء والالتحام بالأرض موطني الأصلي ومرجعي. كم أحب الشتاء.. كنا نحتضن فيه دفء أحاديث لا تنتهي، وتعليقات عذبة مرحة تطلقها أمي، وضحكات من القلب تخفق حين يدخل أبي متسائلاً مستغرباً..

ذاك الزمان الرائع.. ليته يعود.

وجه أخي يصرخ لهفة وترقباً. أعرف أن قلقه عليَّ قدره. فهو شرقي وأخ محب ملتزم. لن تستطيع سنوات في أوربا أن تُلغي جذوره.

منذ كنا صغاراً ونحن أغلال في أعناق إخوتنا الذكور.. "لا يا أحمد أنتَ الرجل، وهي الأكبر يا أمي.. هذا صحيح ولكنك رجل أسمعت رجل" كنت أسمع حوارهما فيتدفق الدم حاراً في جسدي، وأشعر بالسخط، وأنني ضعيفة عاجزة، وأتخيل جسد أخي يتطاول ويقوى والمكان يردد الصدى.. "أفهمت أنت الرجل"

يحاول أحمد إخراجي من قوقعتي فيدعوني إلى سهرة عند أصدقائه.

سأذهب قد أجد ما يُنسيني. أجلس بينهم. أرقبهم. أنصت إلى أحاديثهم منفية أنا. لن أستطيع المشاركة أو التجاوب. أشعر أنّ الجسور بيني وبين العالم قد نُسفت.

ماذا حدث لي منذ وفاته.؟

بل منذ تهاوت معاني الأشياء من حولي، ونضبت الحقائق.

قبله كنت مجرد تلميذة، مجتمعها البيت والمدرسة، وأحلامها نبع لا نفاذ لمائه.

ولكنني بعد الزواج توسدت أرض الواقع، وفتحت باب قلبي على مصراعيه لاحتضان حياتي الجديدة ومجتمعي وتعودهما.

فماذا حدث لي..؟

أأضم هزيمتي وكبريائي وأنزوي كشمس آخر النهار إلى ما لا نهاية؟

قلبي لم يعد يهفو لشيء...

كأن مشاعري طويت مع صفحة الماضي أو تلاشت.

تراني غدوت بلا أحاسيس.؟

لم هذا الأسى المسيطر على قلبي؟

لم الحزن؟

لم الضياع.؟

لم لا أُمزق تلك الصفحة الصفراء البالية المتوسطة لدفتر حياتي وأدع للرياح العاتية تقرير مصيرها.؟

لم لا أهجر شيطان السأم واليأس، وأعود إلى حضن الحياة؟

أيستحق الماضي أن أريق لأجله سنوات عمري القادمة؟ أيستحق..؟

إن الحياة مجرد أيام إمّا أنْ يَستأثر الحزن بها، أو تترقرق فيها الضحكات جذلى.. الضحكات التي نسيت.

اليوم لي، وغداً لي. فلماذا لا أحيا. لا أبدأ من جديد. لماذا..؟

ولكن كيف.؟ أخي طوال النهار في عمله ودراسته، وأنا وحيدة في بلد لا أتقن لغته، وأخشى المجازفة. الشرنقة تلتف حولي... حائرة..

والمدينة الحلم كهف مهجور يحتويني..

في أعماقي همس يذكرني بلؤي -أرفضه- لا أنصت له، يقوى حتى يصبح صراخاً ونداءً ولهفة.

أرفض النداء وأستنجد بعقلي وحكمتي وخوفي.

الكون كله لي، وأنا أسير وحيدة. أنصت لأنني التربة المضطجعة تحت ركام من الجليد، وقبل أنْ تعلو جلبة الحياة كنت أتجه إلى بيت لؤي. بيته قريب.. حدّثني من الطائرة عن حياته. بيته. عمله. وحدته. غربته، حاجته للعودة صداقاته. بالرغم من أنني لم أستطع أن ألبي رغبته في معرفة حتى القليل عني، وأتساءل الآن.. ترى أيكون السبب أنه لم يكن بالنسبة لي إلا مجرد رجل غريب. أم أنني كنت خجلى من ماضٍ أود أنْ أنساه؟.

طرقت بابه وقلبي ينتفض خوفاً ورهبة، وحين أطل امتلأت عيناه دهشة مختلطة بفرحة طفل حصل على هدية طالما تمناها.

مضى خوفي بعيداً وأنا أتأمله... كم هو رائع هذا الرجل"

قال بلهفة.. تأخرت كثيراً، وتناول يدي ضمها بين يديه وقال بإصرار.. حقاً لماذا تأخرت.؟ لماذا.؟.

شعرت وعيناه تهمسان لي بفرح "لن أدعك تغيبين أبداً" وكلماته في أذني "لماذا تأخرت" أن غربتي قد انتهت، والجليد الذي كان يغلف جدران قلبي قد ذاب.

أقنعه.. لا أريد جدراناً ترتطم الكلمات بها فتغدو أصداءً.

يرتدي معطفه ونخرج.

الصقيع يلف المدينة بوشاحه. يتأملني وأنا أحدّق في روعة الكون. أعود بذاكرتي لدمشق وغوطتها ومتعة السكون الكامن في الطرقات الفرعية المختبئة تحت أشجار تمارس الاحتضان دون وجل منذ مئات السنين.

تسكنني سكينة افتقدتها، فأشعر برغبة قوية أن أتقوقع داخل صدر هذا الرجل المستسلم لذهولي. عيناه تقرآن ما يختلج بداخلي، فتمتد يداه لأرتمي بينهما للحظات ثم أبتعد فزعه.. "مَنْ هذا الرجل لأستسلم لمشاعر تدفعني نحوه.؟"

- تهربين.؟

- ومن لم يهرب يوماً من شيء؟

- مم تخافين.؟

- الخوف لغة التفاهم بيني وبين العالم، والهروب السلاح الوحيد المتوفر لدي.

- وبعد؟ وإلى متى؟.

- أنتظر القدر كعهدي.

أمضغ علقماً ورأسي يلوك الأحرف والكلمات "إلى متى..؟ إلى متى..؟"

أيمكن أن تكون السنوات الخمس الماضية هي عمري كله؟

أنظر إليه وأقول: وأنت ألم تشعر بالخوف يوماً؟

- من الغربة في أعماقي.

- وهروبك إلى هنا؟

- تلألأ في سماء حياتي نجم أسرني فتبعته كان في تصوري الحرية والمتعة والمال، وبعد مضي السنين بدا على حقيقته غربة. غربة. غربة.

امتدت يده وأمسكت يدي والمطر ينهمر محمّلاً بذرات من الثلج تتلاعب الرياح بها لترتمي بمجون محبب فوق رؤوسنا ثم تتلاشى.

– كم أحن إلى دمشق يا لؤي وسقوط الثلج على أرضها عيد ننتظره بقلب ينتفض لهفة. وأنت ألا تحن لها، وتتمنى العودة؟

– أتمنى ولا أجرؤ.. تعودت هذه البلاد.

تهيم أفكاري مبتعدة إليها.. إيه يا دمشق يا غالية. يا امرأة شرقية مسكونة بالصبر، ويا أماً عشقها أبناؤها وهجروها ونذروا ألا يموتوا إلا في حضنها. أحبُّك وأحنُّ إلى غربتي فوق أهدابك، وإلى ياسمينة تسلقت نافذة غرفتي وهجرتها يوماً.

ندخل إلى بيت أخي معاً. يتعارفان أدعهما وأذهب لأعد القهوة. الحديث حانٍ. شيّق لا يود أن ينتهي. جمعت الغربة، ومحبة الوطن بينهما.

منذ توسدت يدا لؤي رأسي المضطرب وقلبي الواجف. انزوت غربتي، ومضى الملل بعيداً، وحمل الضياع هلاهيله وتنحى، فسعت الحياة إلى لقائي، وتأبطت ذراعي بحنان، فاحتضنتها بحب ولهفة.

احتل لؤي أيامي كلها. أصبحت وأنا معه أشعر أين ألمس الغمام، وأخطو فوق السحاب، وأجتاز الدنيا في غمضة عين، وأنني أريد.. وأريد. وأريد. صار ينتقي من مكتبته كتباً في كافة مجالات الحياة ويقول لي.. غيداء.. اقرأي وبعدها نتحدث.

وتحدثنا، تحاورنا في العلم. في السياسة. في الأدب.

أدركت كم أفتقد وكم خسرت، وأنني كنت واقفة خارج حدود-عالمي.

كنت زوجة مطيعة، وربة بيت مثالية، وفي وطني مازال بالنسبة للزوج إتقان الزوجة لوجبة طعام خير مئة مرة من خوض حوار عقيم معها.

شعر أحمد بالسعادة والفخر للتغيير الذي حدث لي، ولم يعترض على صداقة لؤي، وزياراته، وتجوالي الدائم معه، وارتباطي به. كنت أتساءل بسخرية: "تُرى لو كنا في دمشق..؟" ولكن شعوراً غامضاً صار يمتلكني حين يكون بعيداً فأحوم حول نفسي كالتائهة، ويعود الخوف ليقيم طقوسه في عقلي وكياني، وتحتلني الغربة من جديد، فأصرخ بشفتين صامتتين.. لا أريد التعود على وجوده. سأرفض بشدة ارتباط مشاعري ووجودي به. هو صديق. صديق وحسب. أحتاج صداقته حنانه ولهفته، ولكنني لن

أحبه. لن أحبه.

في انتظاره وحدي. سنذهب إلى المسرح. لقد اعتدت الذهاب إليه هنا، وأحببته. المسرح في دمشق مكان لا يفكر بالذهاب إليه إلا القلة.

المطر سياط تلسع الكون. وصوله سينهي الصراع الدائر في داخلي..

لماذا تأخر..؟

أيمكن أن أمضي يوماً من أيام عمري دون أن أراه..؟

أسمع وقع خطاه. أهرع إلى الباب لملاقاته. أدفن رأسي في صدره.

يداه تحيطان بي. أشعر أني عاجزة عن التنفس أو استيعاب ما يحدث.

أبتعد.. بصعوبة ألتقط أنفاسي، وألملم أفكاري المبعثرة.

نظرته تحمل المرارة. يتمالك نفسه ويقول.. ما رأيك بفنجان قهوة مُتقن الصنع.

أتأمله، وأهمس.. والمسرح؟

يبتسم بود ويقول وهو يتجه نحو الباب.. سنذهب بعد تناول القهوة.

على المقعد شاردة. تُراني المخطئة..؟ أرواسب عقلية شرقية مازالت متشبثة بنا هي السبب. أم الخوف؟ الخوف من الله.. من الحب ذاته.. مما عانيته في الماضي. أم هي الأسباب مجتمعة؟

لن يفهمني.. أية فاجعة أن أخسره.

ماذا أقول له، وكيف أجعله يعرف مدى حاجتي إليه، وأننا سنحقق المستحيل معاً. لو تعرَّف إلى أعماقي.. لو فهمني. لو. لو...

يدخل ورائحة القهوة تسبقه. نظرات عينيه الصريحة الحانية تمتص قلقي، وتنتزع خوفي. تمتد يدي إلى فنجان القهوة.

يجلس وهو يقول.. الوقت مازال فيه متسع. دعينا نتحاور.

أتأمل الوجه الحبيب وأقول.. أعتذر يا لؤي عما حدث، ولكن...

قال.. دون مقدمات، أنا أحبك، وأستأنف.. دعينا نتزوج.

أذهلتني بساطته، وصراحته، ومباشرته.

داهمني الصمت، فاستسلمت له.

سمعت صوته يهمس.. سيدتي. ألا من جواب..؟

أمعنت صمتاً، فقال.. إني أنتظر، وأردف وهو يلبس معطفه.. والمسرح أيضاً.

أنا، وهو، وصقيع مدينة الضباب، والصمت والسيارة تعبر بنا الشوارع الهادئة نحو المسرح.

لهب قنديل يصافح أعماقي المنسية، ولكن أمنسية هي حقاً. أم أنها غائرة في أعمق الأعماق إلى حين.؟

نتزوج..؟ وأرنو إليه. أعبُّ من نظرته الحانية الحبيبة، ويدي تلتجئ لحضن يده.

نتزوج..؟ أليست أمنية أن نفعل؟ لماذا أشعر بالحزن، وبرغبة جارفة للبكاء؟

وهذا التردد.. لماذا؟

لماذا لا ألتجئ إلى صدر هذا الرجل، وأحتمي من ضعفي، ومن عالم أخشاه؟

لماذا لا أنهي هذه المعاناة، وأذوب في كيانه.؟

يحبني، وأنا دون شك أحبه، فلماذا هذا التشرد، وهذا الفزع..؟

أنا أنثى ضعيفة. هكذا خُلقت، وسأظل، وسيأتي يوم أصبح فيه تابعاً لرجل.. لا مهرب لي، فليكن هذا الإنسان الرائع.

لماذا لا أستسلم لواقعي، وأرمي رأسيَ المتعب فوق صدره، وأُنهي مأساتي؟

أنظر إليه.. هو الملجأ في النهاية، فلماذا لا أختصر الطريق، وأعترف بانهزامي؟.

مازلت في بداية درب المعرفة والخلاص، فلأتراجع، وأعود كما كنت..

امرأة صاغرة طائعة، وأجعل منه طاغية آخر؟

ذاك الرجل أنا مَنْ كوَّن طباعه بضعفي وانصياعي. أنا مَنْ فجَّر مكامن جبروته.

أنا مَنْ أعاده إلى عنجهيته.

كل رجل شرقي لديه استعداد للعودة إلى جاهلية الماضي، والمرأة هي الوسيلة.. المرأة وحدها.

نصل. ينزل لؤي من السيارة، ويتجه نحو باب السيارة الآخر حيث أجلس يفتح الباب لي. أتأمله. أهبه

يدي، وعيناي تجولان في عمق عينيه

أنتزوج يا لؤي..؟ ياه. ليتنا نفعل

وأجعلك طاغية.. ثم أكرهك.

فأخسر أحاسيسي الممتعة نحوك. وأخسرك؟

لا.. لا لن أفعل يا لؤي. لن أفعل.

إنما.. حين أنهل من الحياة ما يجعلني أشعر أني ولدت من جديد. امرأة قادرة على العطاء والبقاء سأبادر إلى قطف ثمرة حب غض عذب أريده أن يدوم.

أنا وهو نخطو معاً إلى داخل المسرح.

يدي في يده، وعيناي تقولان له..

لن أجعل منك طاغية آخر.

ولن أُهزم من جديد..

لن أهزم

حريتي.. حصان جامح

يلوك الكلمة باستمتاع. ونشوة..

"أنا حر.. حر. عقلي حصان جامح لم يروض بعد، ورغبتي بالهروب قوية آسرة. سأهرب إلى أي مكان بعيد. بعيد عن عالم اللاحب والنفاق والقيود.

سألملم البقية الباقية مني. وأهرب.

أنا حر.. حر. منذ طفولتي وأنا أعشق الحرية. كنت أكره كلمة (لا) حين يقولها والدي رفضاً لعمل أرغب في إنجازه بيد أن الالتزام وضع القيد رغماً عني في عنقي.. واليوم ومنذ الساعة أنا حر، سأذهب الآن إلى ماويه..

ماوية المرأة التي أحببت، والتي ظلّت المنارة التي تنير لي الطريق الصعب الذي اختاره لي أبي. الحزب والالتزام الوظيفي، ثم الانجراف في طريق السياسة.

طريق شائك لا أدري كيف استطعت الدخول في

متاهاته، وكيف صمدت أمام مسؤولياته الجسام."

ألقى عبد العزيز نظرة سريعة على نفسه في المرآة المعلقة على الحائط قرب باب البيت قبل أن يغادره وهو يحمل حقيبة معبأة بالقليل من الملابس، والكثير الكثير من الكتب والدفاتر وأقلام الرصاص، ولم ينس العلبة الموزاييك -الصغيرة التي اشتراها ليضع بها الممحاة والمبراة، فهو لا يحب أن يكتب إلا بالقلم الرصاص. يكره الشطب الذي يجعل الكلمات على الورقة فوضوية تائهة. كان الصباح قد فتح عينيه، وأخذ يستعد لاستقبال أبناء الكون.

خرج عبد العزيز إلى الفضاء الرحب، وعقله مازال يردد.. أنا حر.. حر.

تأمل المرسيدس البيضاء التي تقف بزهو إلى جانب الرصيف، وتحمل رقماً حكومياً- والتي خصصت له منذ وصل إلى مركزه الحالي- واتجه نحو سيارته الخاصة.. صغيرة هي ومتواضعة، ولكنها له. ملكه وحده. اشتراها من ماله حين استوردت الحكومة سيارات للمواطنين للمرة الأولى.

"يا الله كم هو ممتع أن يستعمل الإنسان ما يملكه، فهو يدرك أنه يمشي على أرض صلبة تتحمل وقع خطواته فيشعر بالاطمئنان والراحة."

جلس عبد العزيز خلف المقود، وانطلق بسرعة.. "مات أبي.. القلعة دكت، والحصن انهدم، والقلب العامر بالحب توقف. مضى أبي بأغلالي إلى حيث لا عودة فأصبحت حراً.. حراً.

سأحطم كل القيود التي من أجله كبّلت نفسي بها، وأبدأ من جديد كاتباً حراً كما تمنيت.

سأدخل عالم الحرية الرائع. هي في انتظاري. ماويه اختياري وحبي الأول الذي حُرمت منه من أجل تحقيق حلمه. أراد أن أكون موظفاً مهماً ذا شأن لأستطيع فعل شيء لوطني، وأحقق بعضاً من أمنياته. كان الوطن شغله الشاغل، وهمّه الوحيد. عشر سنوات عشتها. مركز مرموق، وسيارة فارهة، وبيت فاخر، وقيود.. قيود والتزامات، وانصياع لأفكار وأوامر الآخرين.

بيئة مريضة، ومصير غامض، ووجوه متملقة، وابتسامات مرسومة بلهاء، واجتماعات خاوية إلا من كلام يُرَّص على ورق ثم يُرص في سلّة المهملات.

أرضيت الجميع إلا نفسي، وأسعدت الكل إلا أنا. من أجل أبي. من أجله وحده ضحيت بحريتي، وسنوات عمري..

لماذا يحب الآباء أولادهم لدرجة الاستعباد..؟

استعباد.؟ بل. حب، حب، حب.

تراني سأغدو مثله حين يكبر أبنائي..؟

ليتني.. ليتني أصبح مثله.

أأقارن نفسي به، وأنا الأناني.؟

أليس من هروبي الآن تخل عنهم وأنانيه.؟

أليس في زواجي من امرأة أخرى ضياع لاستقرار أحتاج إليه.. حتى لو كنت أحبها؟

يا إلهي مَنْ أنا؟

أين عقلي الراجح، وحكمتي؟

أعرف الحقيقة وأنصرف عنها.. أمن أجل امرأة.؟

لا.. لا أبي هو السبب. منذ توفي والثورة تتأجج في رأسي، والدم يغلي في عروقي، وإحساس بالضياع والتوتر يسيطر على كياني كله. كان يفكر عني، ومضى.

يقودني، وتخلى. يسوس أسرتي، ومات. مات أبي القوي المحب. قادني بالحب، وبالحب وحده امتلكني، والآن كل شيء انتهى، وغدوت حراً. ماويه تزوجتها، وهي الآن في انتظاري لأنعم معها بالحب والحرية، وزوجتي كتبت لها رسالة.

لها حرية الاختيار، وسيارة العمل الفارهة لا أريدها.

تكفيني سيارتي الصغيرة هذه، ومن عملي سأستقيل. سأحيا كطير. كنسمة. كغيمة مهاجرة. كحلم جميل. حراً. حراً من كل القيود"

فتح عبد العزيز المذياع والسعادة تغشى وجهه وعينيه وقلبه. أراد سماع أغنية، أو لحن هادئ.

صوت المذيع أقلقه. شعر أنَّ الصوت واهن وحزين. داهمه إحساس قوي أنَّ المذيع يبكي. بل العالم كله يصرخ وينوح.

أغلق الجهاز بسرعة ووجه أبيه ومضة مضيئة تطل فجأة أمامه..

"هذا الجهاز يا بني إنجاز عظيم لهذا العالم. كان يجب أن نخترعه نحن. فنحن أمَّة الحضارة" ويستأنف. "يجب أنْ تعيدوا لوطننا عزَّته وعظمته يا ولدي"

وألمح بريق عينيه وهو يستمر قائلاً "جيلكم يا بني جيل توحيد الوطن العربي كله. جيلنا حرره، وعليكم أنتم أن تعيدوا له قوته، وكرامته، وفلسطين هي كرامتنا المهدورة. أعيدوها يا بني. أعيدوها"

ودخلت لعبة السياسة من أجله. لأرضيه. كان يسألني وينصت لأكاذيبي بشغف، وحين يراني غاضباً يقول بثقة مُطَمْئِناً. "إياكم أن يتسرب اليأس إلى نفوسكم. الله أقوى

من أعدائكم، وقد وعدنا بالعودة ووعده حق.. عليكم بالعمل وحسب."

ما كان يعلم أنّ الأمة العربية كلها تعيش عذاباً مضنياً واحتمالها له إعجاز يدرك سببه كل عربي، وأنّ الضغوط أكبر من أن نقاومها، ومع هذا نفعل. وأنّ مصالحنا تقتضي منا الحكمة ولا شيء سوى الحكمة

عب عبد العزيز من الهواء النقي وابتسامة حب تغطي معالم وجهه "كم كنت نقياً وحالماً يا أبي. جيلكم جيل الأحلام أما نحن فنعيش الواقع. الواقع العفن البائس.

أنا هارب يا أبي..

هارب من أحلامك التي لم أستطع تحقيقها...

هارب من ظلمة العجز إلى رحاب الحرية.

سأكتب عنك يا أبي، وسأحقق أحلامك على الورق، وأمزّق كل الأقنعة التي تغطي الوجوه.. لن أنام، ولن أموت قبل أن أقول ما أردت وما أريد.."

بضع دقائق وحسب ويصل ماوية حبيبته في انتظاره في بيته الصيفي..

قال لها وهو يضع في يدها المفتاح وورقة كتب عليها العنوان "قبل أن يزقزق أول عصفور في الكون سأكون معك"

بنشوة طفل ولهفته فتح عبد العزيز باب بيته الصيفي. كان السكون يشمل المكان، والبيت يغتسل بالظلمة..

تُراها نسيته.؟

أم تود مفاجأته بشكل ما..؟

ستهرع إليه الآن، وترتمي بين ذراعيه هامسة.. أحبك.. أحبك. بخطوات قلقة حائرة بحث عنها. غرفتها امرأة مجنونة عاتبة، وهي كائن هلامي بلا معالم ولا وجود. نائمة. نائمة.

داهمه سيل من الأحاسيس حزن. حسرة وخيبة. شعر برغبة وحشية قاهرة للهروب. صرخ بصمت "هي قيد جديد. سجَّان جديد. درب مظلم آخر. التزام مقيت من نوع آخر.

لا للحب. لا. لا كاذب هذا الإحساس. كذب. خداع. وهم هذه ليست مَنْ أحببت ومن عانيت لأجلها. من حلمت بها. مَنْ تعلقت بها منذ طفولتي. هذه ليست ماويه صديقة عمري وحبيبته. كنا وجهين لعملة واحدة تحب ما أحب، وتكره ما أكره.

كيف اكتفيت برؤيتها لمرة واحدة بعد مرور كل تلك السنين. لقد تغيرت. تغيرت شكلاً ومضموناً. هذه ليست ماويتي التي عرفت وأحببت..

تلك الرقيقة الوديعة الرائعة. هذه ليست هي. لا. لا.

فتحت ماويه عينيها. رأته يقف مذهولاً. مدَّت له يدها.

التقطت يده، وأغلقت عليه أسوارها.

انتهت الحكاية، وصمت اللحن قبل أن يبدأ، وكُسر القلم قبل أني يخطَّ كلمة.. تمزَّقت الأوراق وتبعثرت مع الرياح القادمة من شعاب الأرض كلها، وعادت الحياة المقيتة المملة المكبلة بالقيود والتصقت بعبد العزيز كعلقة..

ولكن علبة الموزاييك الصغيرة التي اشتراها خصيصاً للممحاة والمبراة ظلّت الأمل السقيم، والذكرى الوحيدة لحلم مستحيل سيرتد أبداً بين أهدابه.

لأسطورة غامضة لم يدرك كنهها أحد.

لمنارة لما تكتشف بعد.

لنجمة ضائعة من سماء مدينة ما.

لحرية ستظل حصاناً جامحاً لم يروَّض...

ولن يروض أبداً.

مطلوب حكواتي

أحسَّ وسيم بألم في مكان ما من جسده، فقد أوشك اليوم أن يمضي ككل يوم ولما يجد عملاً بعد. لم يستطع تحديد موقع الألم ولا ماهيته.. قد يكون ألماً جسدياً، وقد يكون نفسياً، فهو يشعر بالإحباط منذ تزوج، وأصبح يعيش حياة غريبة لم يفكر يوماً أنه سيعيشها، فالبيت غول لا يرحم ولا يشبع يحتاج للمال. المال الكثير الكثير...

والحصول على المال ليس بالأمر السهل.

لم تكن المسافة إلى بيته قصيرة، ولكنه لن يستطيع دفع أي مبلغ لسيارة أجرة تنقله إليه، فكل قرش يجب ادخاره ليشتري به ما يحتاجه البيت. صارت خطواته المتعبة بطيئة تعرقل حركة السير للعائدين إلى بيوتهم، فكان كثيرون يصرخون به قائلين (أتسير على زجاج يا رجل؟) .

ندت عنه آهة لاإرادية، والألم يأخذ بمجامع نفسه،

والليل عابس الوجه أسود رهيب يزيده حزناً وكآبه.. هو يحتاج للعمل. يحتاجه. فالمسؤوليات عبء، وحِمل ثقيل ينوء كاهله به. مَنْ في مثل عمره مازالوا يتمتعون بالحرية والراحة، أما هو فالحب ابتلاء بالالتزامات.. لم يدرك حين قرر أن يتزوج من يحب أنّ الحياة الزوجية بهذه الصعوبة.

التقطت عيناه كلمات استغربها.. مطلوب حكواتي" وقف حائراً. حكواتي..؟ أفي هذا الزمان.. زمان العلم، والاختراعات، والصعود إلى القمر والمريخ يطلبون حكواتي..؟ أفي زماننا هذا أمية وجهل..؟

لم يتردد وسيم طويلاً فقد كان التشوق لمعرفة كنه هذا الإعلان لديه قوياً جداً. تحرك بلهفة نحو المدخل المزين بزخارف ملوّنة، ولافتة مضيئة كُتب عليها (مقهى أبو نواس) كان الرجال في القاعة الكبيرة يجلسون باسترخاء ينفثون من أفواههم دخان النراجيل، ولكل منهم شارب يغطي نصف وجهه، وبين أيديهم طاولات النرد.

أعطاه المسؤول كتباً وقال: عملك يا ولدي يسير.. ستقرأ لهم مما تحتويه..

أعجبه العمل، فهو مجرد قراءة.. رائع جداً فلا عقله سيتعب ولا جسمه. إنه عمل سهل.. سهل بالقياس للأعمال السابقة التي مارسها، فقد عمل في مكتب تجاري صاحبه

غائب يلهث خلف رزقه المبعثر هنا وهناك. كان الجميع يسرقون، والحجة غلاء، وراتب قليل، ورزق وفير لصاحب المال اللاهي دائماً.. اعتبر وسيم صمته مشاركة في السرقة، وحين فتح فمه ليريح ضميره وقال ما يعرف. طرد لأنَّ الحقيقة في هذا الزمان صارت شعاع شمس مختفية خلف غيوم لا تنقشع.

وحين وجد عملاً في مكتب آخر قرر ألا يعلم أي شيء تجنباً للمشاكل ورغبة في الاحتفاظ بمورد رزقه.. لكن الهمس اخترق أذنيه..

ظلم. سرقة. تلاعب وود ولم يستطع أن يصمد طويلاً.

أما هنا فسيبقى.. سيبقى. فحاجته للمال ستجعله يحتمل.

بدأ وسيم بالقراءة من الكتب القديمة المرصوفة على الطاولة إلى جانبه، والرجال ينصتون باهتمام، ويصرخون بسرور وبصوت واحد حين يحدثهم عن انتصار عنترة على الأعداء، أو يقرأ لهم بيتاً من شعره في عبلة، ويصرخون استنكاراً لهزيمة يُمنى بها، أو مشكلة يقع فيها.

أخذ وسيم وهو يمتشق حسام الكلمات المنمقة. يتأملهم بدهشة واستغراب. كانوا يغتسلون بدخان النراجيل معتزين

برجولة وهمية ويختبئون خلف أقنعة تخفي حقيقتهم.

تُرى مَنْ هؤلاء؟ ومم يهربون؟ أمن واقع أليم وعجز قاتل؟

أم يتوارون من سياط أبجدية قادرة على غزل الآمال، وبناء عالم من السراب؟

تراهم اختاروا هذا المكان، ليبنوا عالمهم الخاص دون حاجة إلى إذاعات، أو بيانات، أو شعارات بالهروب إلى الماضي..؟

كان المكان صورة من الزمن الغابر.. بزخرفته، ونقوشه البديعة، وصوتُ الماء المتدفق برقة من البحرة التي تتنصف الساحة السماوية المزروعة بالأزهار، والرياحين، وأنواع النباتات الخضراء، ودالية العنب المعرّشة والتي تمتد أياديها المحمَّلة بالعنب الناضج هنا وهناك.فوق رؤوسهم، وشجرة الليمون في إحدى الزوايا، وفي الزاوية الأخرى شجرة النارنج، والموسيقى القديمة الهادئة تنبعث في أرجاء المكان لتغمر قلوبهم بالدفء والهدوء فينسوا..

حاول وسيم اختراق الحاجز بينه وبينهم.. تجرأ يوماً، وتوقف عن القراءة وقال والعيون تُحملق به: لماذا..؟

لم يدعوه يُكمل بها أجابوا: التساؤل حيرة..

قال بصوت ضعيف: ليتكم يا سادتي تعرفون....

أجابه أحدهم مقاطعاً: عرفنا، واكتوينا بنار العجز.

تساءل وسيم والحيرة تعتمل في داخله.. أيكون هؤلاء قد امتلكوا الحكمة..؟ أم أنهم جبناء ضعفاء هاربون من مواجهة الحياة؟

تدافعت الأسئلة إلى رأسه، ترافقها صور شاحبة لمشاكل بدأت تطرَق باب عمره بعنف بعد زواجه المبكر ممن أحب.. سمر الموظفة الحسناء عرفها أول مرة في مكان عملها حلوة هادئة أحس أنها ستكون له.

ولكنه لم يكن قد تخرج بعد من الجامعة، ومازال يأخذ مصروفه من والدته الأرملة. لم يفكر بهذا إلا بعد الارتباط وما يعنيه من التزامات، لقد درس الهندسة أملاً بمستقبل باهر، ومركز محترم، وقيمة اجتماعية يفخر بها، وانتهى به المطاف إلى وظيفة حكومية قبل الظهر يضمن بها راتباً شهرياً يقيه الحاجة، وبعد الظهر يعمل ليفي بالتزامات أخرى لا نهاية لها.

والمشوار مازال طويلاً، والمال قليل، والحياة بقسوتها تُنهك الأعصاب.

يمعن النظر في وجوههم الخالية من التعابير، ويحدث

نفسه بمرارة تُرى لو كان لكل منهم قلب ينبض بالحب، أو هدف محبب يسعى إليه، أو إيمان قاطع كامل بالقدر.. أينجرف إلى هذا الدرك من التواكل والضياع.؟

يتمتم بحماس.. يجب أن أساعدهم على الخلاص.. نعم يجب أن يعرفوا ما يعانيه غيرهم ليدركوا أنَّ مشاكلهم لا تعني شيئاً أمام مشاكل الآخرين...

يتناول كتاباً.. يتنحنح معلناً بدء القراءة، ويقول: قال الراوي ساده يا كرام:

- القدس ضاعت..

قالوا بصوت واحد، وماذا نستطيع أن نفعل لها.

- وليبيا الأغلال في عنقها منذ سنين.

لا أمل..

- وإسرائيل ذئب شرس، وأخطبوط أياديه تمتد نحو كل أجزاء الوطن.

لا أمل.

- وأمريكا...

لا نريد أن ننصت لك.. لا نريد. دعنا أرجوك.

- افتحوا المذياع يا سادتي واسمعوا

لماذا..؟ لنعرف أن العالم زُلزلت أركانه، وغرق

العباد في حضيضه وتاه العرب عن حقوقهم فيه..؟

يصمت وسيم مُكرهاً وهو يحدث نفسه... ترى أيكون لكلٍ منهم عالم ينتظره، ومسؤولية ألقاها عن عاتقه؟

أيعقل أن أغدو مثلهم، فأشعر بالراحة وأنسى.؟

تتناول مخيلته صورة زوجته، وأمه، وإخوته، وصراع دائم على أتفه الأمور، ومال قليل يأتي أول كل شهر، ويذهب دون أن يُلبي أقل الاحتياجات، واستلاب لأجمل سنوات العمر، وأحلام أسطورية لن تتحقق إلا بأساليب ملتوية لا يرضاها.

تُظلم أعماقه، فينظر إليهم. استرخاء ولا مبالاة.. يتمتم. لماذا لا أصبح مثلهم..؟ ألست أخطو الخطوات ذاتها..؟ فلم لا أسبق الزمن، وأختصر الطريق، وأدع للقدر مصيري، وأقف لأنظر..؟ تنفرج شفتاه عن ابتسامة، وهو يتخيل نفسه بينهم.. يصيخ إلى صمت عقله واستسلامه. يمسك الكتاب. يقرأ لهم بود وألفة. يحاول أن يتجاوب مع الأحداث. تتشتت أفكاره، وتنطلق نحو أمه. لقد أوصته أن يجلب لها دواء الضغط، وزوجته التي خرجت معه نحو عملها منذ الصباح، وقبل أن يفترقا. قالت له: لا تتأخر اليوم لك عندي مفاجأة... يبعد الأفكار، ويعود إليهم. ينتفض فجأة حين يتذكر أنَّ موعد النوم بالنسبة لابنه قد أزف وهو يرفض أن يستسلم للنوم قبل أن يطبع قبلة على

وجه أبيه.

يضع وسيم الكتاب جانباً وهو يتأمل الرجال، ويقول لنفسه..

قد أبقى مصفداً بأغلال الهموم، وقد تحتضر أحلامي، وقد أعاني ما لا قبل لي على احتماله، ولكنها حياتي.. حياتي أنا ولا مناص لي من أن أعيشها. بحلوها. ومرِّها، وقدري لا بد من تقبله.

نهض وهو يتمتم سأبقى هنا.. سأبقى

فأنا أحتاج للعمل،

وهم بحاجة.. بحاجة لي.

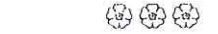

خاتم سليمان

الجو حار ورطب... كل شيء ألمسه لزج...أحتاج للهواء. لا أستطيع التنفس. أكاد أختنق. طفلاي معي أمسك بهما بقوة. البيت الذي نقيم فيه صغير... صغير جداً. وجه عابس يقترب. يداه ممتدتان نحو ولديَّ.

أضمهما وأصرخ لا... لا أبكي. وهو يأخذهما مني عنوة. يمضي بهما ألحق به وأنا أصرخ صوتي مخنوق. أحاول الصراخ ثانية لأطلب المساعدة. لا أحد يلبي ولا يسمع. أهرول خلفه يداي على عنقه... أضغط... أضغط بقوة أستغربها ولكن قواي تخور. أضعف وأهوي... أهوي أرتطم بشيء ما يد تمسك بي، تلمس جبيني. يد حانيه... أصحو. أحاول فتح فمي. حلقي جاف، والكلماتُ فقاعات تتفجر داخل جمجمتي. أشعر برغبة مدمرة للبكاء أو الصراخ أو حتى الموت.

الأحداث تمر عبر مخيلتي، وجسدي ملقى على

السرير دون حراك، وكلمة لماذا طنين في أذني لا يتوقف. لم أستطع إحصاء كم من الأيام مضى وأنا ممددة أزدرد ألماً يفترسني...

مَنْ أنا؟ ولماذا أنا هنا...؟ ما الذي حدث فأوصلني إلى هذا المكان الموحش بين هؤلاء الغرباء...؟

ليتني أذكر... رأسي جذع نخلة خاوية تمزقها فأس ما.

ماذا حدث.؟ لقد كنتُ صابرة. صاغرة. صامتة باستثناء ذلك الحلم، ولكن مالي وللأحلام. إنه مجرد حلم. حقاً يتكرر كلما شعرت بالعجز عن مواجهته، ولكنه يظل مجرد حلم...

أوه ليت الهاربات من أقدارهن؛ المتأبطات لأحلامهن الكاذبة، وعجزهن الأبدي يصمتن.

تراهن بلا عقول حقاً...؟ أم حُملن إلى هنا قسراً مثلي؟

وهذا الطبيب اهتمامه بمرضاه المبالغ فيه يثير ضجري. لماذا يهب حنانه لهن بلا تمييز؟ ألا يسأم؟ أليس كغيره من البشر يدوس الضعيف، ويحترم القوي، ويخشاه.؟، أم تراه مازال شاباً غراً لم يعرف الحياة بعد؟

الساعات تمر ببطء مميت، والصور في رأسي متراكمة بشكل فوضوي، والألم قوي... قوي. ألن أصل

إلى الحقيقة...؟ أريد أن أعرف كيف أتيت، ومَنْ حملني إلى هنا، وكيف استطاعوا إبعادي عن طفليَّ. من أجلهم كان تحملي. قلبي يدق بعنف. لماذا لا أذكر إلا تفاصيل تلك الأحلام؟

"الوجه الغاضب، واليد الراغبة في سحق مَنْ يفتح فمه بالاعتراض، واللسان اللاذع، ويداي حول عنقه وهو نائم تضغطان... تضغطان بقوة أفتقدها حين أصحو فزعةً...".

القلق أصبح رَديف حياتي منذ رزقت بطفلي الأول، والخوف استوطن أعصابي... الطفل من حقه. الشرع يهبه له والقانون، وأنا أين حقي؟ لا. طفلي لي وحدي ضممته بقلبي وروحي وكل مشاعري تسعة أشهر، فكيف يكون لأحد حق به؟ مستحيل أن يسلبني أحد هذا الحق حتى لو كان أباه.

صوت الطبيب عميق، وكلماته حانيه، ولكنني لا أريده. لن أتجاوب معه. سأظل صامتة. إنه يحاول الغوص إلى أعماقي، يستدرجني بكلماته المنمقة. سأوصد كل الأبواب في وجهه، فهو لابد متفق معه ليثبت مرضي النفسي، ويهبه الأولاد، ولكنه لن يستطيع نزع جذور حبي لهم،ولا استئصال إحساسي بهم، فهم جزء من كياني، ولي وحدي. يتقدم نحوي بوجهه الوسيم وتعابيره الطفولية. يبتسم بود. لن أتحدث معه...

فليحاول ماشاء.

– سيدة راوية: ألا نتحدث قليلاً حول ماحدث...؟

(يريد معرفة الأسباب ليصف الدواء...؟ فهل لديه علاج للإحساس بالغربة والضياع والعجز لدى امرأة تعيش مع رجل قادر أن يغدو بلا قلب حين يقول له أحد لا.؟).

– دعينا نتحدث كصديقين...

(أيه صداقه. أتحاول خداعي...؟ الصداقة نجمة انطفأت بصمت ووحشة منذ زمن بعيد).

– راويه يجب أن تتعاوني معي من أجل عودتك لمن تحبين.

أنتفض فرحاً. أنظر إلى وجهه الباسم، وأتساءل بصمت.. أأثق به..؟

أأدمر أسوار قلعتي، وأكدس أمامه كل أحزاني.؟

يده تلمس جبهتي، وتنتقل إلى موضع النبض من يدي. أفتح فمي لأشكره، فيخرسني صراخ النائمة في السرير المجاور يعقبه انتحاب متواصل لا ينتهي إلا بحقنة مهدئة فتعود وديعة كطفل. تُراها تحلم بطفولة حُرمت منها؟ أم عُمرٍ تعيشه عذاباً؟.

انقضى هزيع من الليل. السكون في هذا المكان لا يتوفر ولو الجميع نيام، فلكل منهن كابوس يؤرقها، وأنا

إلى متى سأظل مستمرئة البقاء هنا...؟ وماذا أنتظر...؟ خاتم سليمان... ألمسه...أدعكه فيحقق ليَّ كل الأماني؟ وماذا أريد منه الآن؟ وماهي أمنياتي؟ أأتمنى إلا أن أحيا مع طفليّ؟

أبقيَ لأحلام الماضي قيمة أو وجودٌ؟

لاشيء يغريني... لاشيء سواهما. لاشيء.

يجب أن أجد مخرجاً... أن أنتزع سرطان الخوف من قلبي، وأقتل ترددي. الجبن يسري في شراييني... هو السبب هو. لن يموت خوفي إلا بموته.

لن أحيا معه ثانية. لن أحيا، كم أحقد عليه، وكم أكرهه.

يجب أن أقوى أن أطالب بحقي... يجب أن أصرخ في وجهه.

مَنْ هو حتى أخشاه؟ مَنْ هو؟ أليس رجلاً ككل الرجال؟

كم أمقت ضعفي أمامه: وكم أمقته...

لقد ظلمت نفسي بكبتي لمشاعري، وتحميلي القدر عواقب ضعفي وانسحاقي أمام جبروته. كان يجب أن أضع حداً لحياتي معه منذ البداية. أشعر بشيء من الألفة مع السيدات المحيطات بي، وأنَّ رابطة ما تجمع بيننا... أيكون المصير الذي آل إليه كل منا هو السبب؟ أم الدافع

الذي أدخلنا هذا المكان والذي من الممكن أن يكون واحداً؟

الصراخ عاد يمزق سكون الكون، يرفع الأستار عن صورته من جديد الصراخ يذكرني به... يجعل قلبي يدقّ كالطبول... أذكر وجهه المتجهم لأتفه الأسباب وعيناه تقدحان شرراً. أنصت لتهديده ووعيده. (كل مافي البيت لي حتى الأولاد تخرجين كما دخلت) تخرجين من بيته... لماذا بيته ألسنا شريكين في تأسيس هذا البيت؟ ألأن عقد الامتلاك باسمه؟ ألأنه يعمل ويحصل على المال؟ وأنا لا أعمل؟ مسؤولية الأسرة.. أليست عملاً؟ أين العدالة؟ أين حياتي؟.. وأين أحلامي؟... أتكون هذه نهايتي...؟ نهاية امرأة حالمه... نعم أنا امرأة حالمه بل كنت امرأة حالمه ياه كم حلمت وكم تمنيت.

أولادي لن أجعلهم يحلمون. لن أدع لخيالهم سيطرة عليهم ليرفعهم إلى السماء ويرمي بهم كما فعل بي.... سأقول لهم إن السعادة مسألة نسبية... وأنّ بإمكانهم تحقيقها ولكن بأنفسهم لا عن طريق الآخرين، وأن الحرية حق يُؤخذ ولا يُعطى، وأن القوي خير من الضعيف،لا أريدهم ضعفاء مثلي...

الطبيب بجانبي يمسح جبيني، يجسّ يدي... اهتمامه قطرات ندى يمتصها قلبي فتغمره الطمأنينة، والنظرة الحانية تبعث الدفء في جسدي فتتلقفها عيناي بتشبث. تسيل الكلمات بمنأى عن سيطرتي لتضع أمامه كل ما

اختزنته أعماقي، وتهاجمني التساؤلات المحيِّرة كذئب شرس ظل محاصراً زمناً.

– أتستطيع مساعدتي...؟ يأسي سحابة سوداء تمطر سأماً وحزناً وأحلاماً جنونية.

– ابحثي في قلبك عن مشاعر الحب الخبيئة. تتفتح لك أبواب الكون، فالحب يدمر الأحقاد.

– الحب... لقد مضى زمنه، وزوجي للحب لديه مفهوم خاص لم أستطع تقبله، ونحن بالنسبة له أجساد محنطة في متحف يمتلكه.

– بون شاسع بين الحقيقة والخيال، ويجب تقبل الواقع.

– صمدت سنوات ثم تعثرت.

– الماضي قيد يجب تحطيمه للبدء من جديد، والأمل سيدتي سفينه يهدهدها الموج. ترسو على شاطئ المتفائلين وحسب.

– لا أمل الآن في شيء...

– هو في الخارج ينتظر. كان مخطئاً وأدرك ذلك.

– والأولاد...؟

– سيظلون لك أبداً.

– هو لن يتغير.

– بل سيفعل.

– لـن أشـعر بالأمـان معـه، فـالخوف والحـب لا يجتمعان.

انبلج الفجر.. أسير والطبيب حيث ينتظرون. أضم طفليَّ إلى قلبي، وأرنو إلى الأفق البعيد، وأتنهد قائلة بصمت... قد يكون خاتم سليمان حلماً طفولياً خرافياً انقضى زمنه، وقد لا يكون...

لكنني لن أعود إليه...

لن أعود حتى تلتئم جراحي

حتى أنتزع جذور الخوف والغربة من كياني.

لن أعود حتى أمتلك القدرة على مواجهة قدري.

حتى يغمرني شعور بأنه غدا بالنسبة لي الطمأنينة والأمان، والدفء والحنان.

لن أعود حتى أتلاشى وأعود... أعود كقطرة ندى صافية... صافية.

لن أعود حتى أنسى... أنسى...

أنسى...

❁❁❁

مـــاريـــا

خرجت من الوزارِه...

تحمل في يدها (شيك) وفي فمها ابتسامه.

خرجت...

وفي عينيها نظرة استغراب مجنون.

ألفان وستمائة ليرة... وقالها: المحاسب، واستطرد..

ستذهبين (بالشيك) للمصرف لتقبضي المبلغ، والكتـاب يُنشر بعد بضعة أشهر غصت ماريا بالكلمات ومضت.

الطريق صامت وحزين، وهي تسير بخطوات متئده. تقف لحظات لتقرأ الرقم المكتوب على (الشيك)، ثم تسير.

ألفان وستمائة ليرة... ستمائة وألفا ليرة...

كم مائة هذا المبلغ..؟

لوحُسب بالمئات لبدا أكثر احتراماً...

لا. لا لوحُسب بالعشرات.

ياه... كم هي مُرَّةٌ خيبة الأمل..!

الأمل. بل الآمال... أشهر، وكل وقت فراغ يعني بضعة أسطر تترجم، وبضعةآمال تُنقش على صفحة العمر، اختارت ماريا الترجمة لأنها لا تستطيع أنْ تتقيّد بعمل، فدراسة الطب لا تدع لها أي وقت، وهي مازالت في السنة الثانية.

رفضت مشروع حكم، ونفذّتْ مشروعها. ماذا سيقول الآن. لقد حذّرها. ماريا لا تجهدي نفسك. الترجمة عمل متعب، ويستهلك وقتك دون مردود مادي.

– حكم. لا تحاول. فأنا مقتنعه.. إنه عمل راق، وعظيم ولابد أن يكون العطاء المادي بالمقابل عظيماً.

– ستُغطي النظارة الطبية هاتين العينين الجميلتين.

– بل سيمتلئ قلبي بهجة لمرأى الكتب التي تحمل اسمي، واحترام الناس لعملي، فأنا مترجمة ياحكم، مترجمة لأدب عالمي.. ألا تنصت لرنين الكلمة...؟.

– خسارة أنت يامارياً بهذه الأعمال المنهكة، فأنت جميلة، وتتمتعين بصوت يستطيع بالمرانْ أن يؤدي بشكل رائع.

لوعلم حكم الآن...لو علم.

اختارت ماريا الشوارع الهادئة لتصل للمصرف. فعقلها يعمل بعنف...

أين الصح...؟ وأين الخطأ في كل مايحدث.؟

أهي مخطئة لأنها رنت للعمل الذي يتلاءم مع رغبتها، وطبيعتها...

أم كان يجب أنْ تتكيَّف مع مفاهيم عصرها وظروفها المادية كما يقول حكم...؟

وهو يقول إنَّ الغناء مصدر للمال سريع. سريع، وأنه غدا في هذا العصر فن ككل الفنون. كالرسم، والنحت، والإخراج، والتلحين، وهندسة الديكور، ونجاحها مضمون لأنّه هو المُخرِجْ، لقد أرسلته الحكومة ليحصل على الاختصاص من روسيا فعاديحمل شهادة، وعقلية متحضرة ورافضه.. رافضة لكل ما تعرف ماريا من مفاهيم.

هو ابن بيئتها. متوسط الحال مثلها، ومثلها أيضاً أصبح بعد أن انقرضت الطبقة الوسطى فقيراً، ولكنه غدا بعد عودته مختلفاً، صار يؤمن أنَّ المال هو الأهم، وأنَّ الحصول عليه ممكن للإنسان الذكي، وهو ذكي، وهي ستصبح زوجته. وعليه أن يختصر طريقها. أن يُرشدها للأفضل.

ولكن هل سيوافق والدها. الموظف المتقاعد الذي

عاش عمره على مبادئ عفا عليها الزمان كما يؤكد حكم؟... هل سيرضى.؟..؟

ابنته تصبح مغنيه. يسمع صوتها كل البشر، ويراها بعينيه تتمايل وعيون الرجال تحملق بها... تتغزل بصوتها. بعينيها. بقوامها. بـ ... بـ... لا.. لا يمكن أن يقبل.

هو رجل شرقي... الأنثى في نظره يجب أنْ يحيطها برعايته وخوفه مدي الحياة.

وهو لا يسمح لها بالخروج إلا للجامعة، ولا يُبيح الزيارات إلا بألف رجاء...فكيف يرضى...؟

وقفت ماريا في المصرف تنتظر دورها، وتتأمل الأموال التي تنتقل من يد إلى يد.

(قال حكم... ستربحين الملايين...).

تناولت ماريا المبلغ من يد المحاسب، وصوت حكم يملأ رأسها... (ستربحين الملايين) يدها تقبض على المبلغ بعنف، وصوته في أذنيها...

(الفرصة تأتي مرة واحدة... ومشوار الطب متعب وطويل،ونهايته سراب...).

شوارع دمشق في يوم غائم كهذا رائعه... عقل ماريا يضج بالأفكار، وبصوته وبالمال ستملكين البيت والسيارة،

وأهلك سيحصلون على كل مايتمنون. السفر يحتاج للمـال، والرفاهية تعني المال، المرض يحتاج ياحبيبتي للمـال، بـل للمال الكثير حتى الموت يحتاجه).

الهـواء الخريفـي بـارد، وصـامت، وحزيـن، ويدهـا مـازالت تقبـض علـى المبلـغ. شـوارع الأغنيـاء نظيفـة وواسعة، وجميلة.

لماذا يزرعون القرنفل والـورود فـي حدائـق الأغنيـاء وحسب...؟

المعادلة صعبة... صعبة... المال... أم العلم؟

بالمال ستحصل على‌ماتريد،وتتمتع بكل مبـاهج الحيـاة وهي مازالت شابة وجميلة. تحيا في بيت تملكه هي،وتقـود سيارة، وتسافر... يا الله كم هـو رائـع أن تتحقـق الأمـاني بسـرعة، سـتجعل والدهـا يمتلـك البيـت الـذي طالمـا تـاق للحصول عليه، وستشتري له سيارة، ومحلاً تجاريـاً يعمـل به كي يستعيد نشاطه، فالتقاعد مأساة الرجـال، وأمهـا تلـك القابضة على الصبر. ستضم أحلامها المنسيه إلى صدرهـا لتنصت من جديد لحفيـف أوراق الشـجر، ولصـوت الريـح والمطر، وهديل الحمام، وسكون الليل. بل لتحيا... تحيا..

وأخوتها... كل سيحصل على مايريد...

أوه جميلة هي الأحلام، وحكم قال أنها ستتحقق.

دخلت ماريا إلى بيتها. المكان يشمله السكون، ورأسها صاخب. صاخب مجنون. لاذت بغرفة والدها. فهي تريده هو. تريد أنْ تعلمه برغبتها بالعمل في الفن. تعلمه قبل أن تمعن التفكير...

قبل أن يتسلل التردد،ويسلب قرارها الهش.

قبل أن تعود إلى طبعها الأصل عاقلة... عاقله.

خطت نحوه... قبلّت يده، ووجهه.

لمس شعرها بحنان، وضمّها إليه.

كم تحبه، وكم تتمنى أنْ تُسعده.

تأملته... كان يقرأ

تناولت الكتاب. لابد أنه كتاب تاريخ.

لم يخب ظنها. إنه أحد أجزاء كتاب (تاريخ العالم)

أمضى عمره بتدريس التاريخ، ولما يمل بعد. مازال يقرأ بنهم...

أيرى به عبرة.. أم حكمة.؟

سألته...

قال ابنتي. الحياة هي التاريخ.

والتاريخ ماض.. حاضر، مستقبل. يختلف البشر، ولكن الأحداث واحدة فمن يعش الحياة هو الإنسان.

والإنسان ياماريا عقل، وقلب يعمِّر الكون بصبر وأناة... ثمَّ يعود ليهدمه. ولا يظفر بالطمأنينة عبر ظلمة أيامه إلا حين يغمر الحب قلبه، فتتوارى كل المشاعر القاتمة، ويرقص عمره جذلاً.

الحب ياماريا هو الذي يضيء القلب، ويجعل الآمال تطفو على صفحة العمر فيضيع الإنسان الهدف تلو الآخر باستمتاع ولهفة فتغدو الحياة مليئة بالعذوبة والجمال.

الحياة دون حب ياماريا ليل لا نهاية له، وغربة.

نظرت ماريا إلىأبيها بعينيها الصافيتين المليئتين بالحب، وفكرت... تُرى أيحتاج الحب للمال أيضاً...؟

وهذا الأب الرائع.. أيمكن أن تُحبط أمله، وتتنازل بكل بساطة عن لقب دكتورة الذي بدأ بمناداتها به منذ اليوم الأول الذي خطت به نحو الكلية...؟

أتنسى سعادته بكل كتاب كان يشتريه لها...؟

والفخر الذي يغمر عينيه، وهي تحدثه عن عالمها الجديد...؟

انبلج الفجر، وهي مستغرقة في الصمت...

الكرسي يميل بها نحو الأمام،ونحو الخلف...

الكرسي الذي تحب... إرث أجدادها، وجزء من تاريخ أبيها، يعتز به ويخاف عليه كأحد أولاده.

فهو الذكرى، ذكرى الأهل والأحبة. ذكرى الماضي والحب والآمال. ما تحقق منها، ومالم يتحقق.

وهبها إياه حين أطلق عليها لقب دكتورة.

قال لها، والفرحة تزغرد في عينيه...هو لك. لقد حققت الحلم...الحلم الكبير للأسرة كلها.

الدمية تنام بين ذراعيها.

والهواء الصباحي الندي يتسلل عبر النافذة إلى وجهها... منعشاً نقياً.... وهي تستعذب عبق الدعة التي تغمر كيانها...

حكم، وأحلام ولجت عقلها وقلبها كطيف انسل من الظلمة. أحترم ضعفها لفترة وقفل راجعاً عبر الضباب.

هي، وحلم نذرت نفسها لتحقيقه... عاد وطفا على السطح ليهبها الأمل بمستقبل أفضل.

أفضل.

نحو النور

البرد ينسلُّ عبر مسامات جسدي إلى الأعماق رغم كل ما أرتدي... النوم صديق أحبه. وأتمنى صحبته ولكنه أصبح يتجنبني لذنب لاأعرفه. إنني أرتجف. هذا البرد اللعين يرافقني في الليل والنهار.

يلتصق بي وحدي أما الجميع فأشعر بهم يتململون حين أطلب إغلاق الأبواب، أو زيادة الوقود للمدفأة. غريب أنا بينهم. هذه المرأة وحدها بقيت لي. لي أنا. مَنْ خلقها الله بصفاته النادرة الفريدة من أجلي. أأقول لها كم أشعر بالوحدة والصقيع يمتصُّ آخر نقطة دفء من عظامي؟... أأناديها..؟ أم أدعها تستمتع بالنوم؟ ... كم أحبك يادنيا، وكم أخاف عليك. ولكنني غدوت ضعيفاً. أحتاجك: وأخشى الابتعاد عنك ولو للحظات. كنتُ سنداً لك، وغدوتِ أنتِ السند. لاشيء يدوم، أولادنا كلهم ابتعدوا، ولم يبق إلا أنتِ. لكل منهم زوجة أو زوج هو

الأهم، وأولاد أولى بالرعاية، وعمل التعب في سبيله أكثر ضرورة. أما أنا وأنتِ ففي نهاية المطاف يأتي أحدهم ليطلب الرضى ويمضي، فعلى مَنْ أستند بعظامي الهشة، وجسدي الضعيف إلا عليك أنتِ يادنيتي؟... سأحتمل عذاب هذا الزمهرير فترة أخرى علّك تحصلين على نصيب أكبر من الراحة تستطيعين بعدها تحملُ أعباء يوم جديد. كان السهر بالنسبة لي متعة، ووجودك وأنتِ نائمة إلى جانبي متعتي الأكبر. كل شيء في الشباب ممتع ورائع. لن أقول ليت الزمان يعود، لن أقول. فلو عاد الزمان لن أحيا بسعادة أكبر، كل أحلامي حققتها، وكل ماتمنيته حصلت عليه. الحب ملأ قلبي وحياتي بهجة ونوراً.".

تُرى كم ساعة مضت من هذا الليل الكريه؟ الزمن منذ غدت أيامي متشابهة لم يعد له أهميه، فما الفرق بين الصباح والمساء؟ كُفَّتْ يدايَ عن الأعمال كلها، وأوقفوا عقلي عن تحمُّل أية مسؤولية. فما أهمية الزمان. بالنسبة لي؟ أحبني أولادي فخافوا على جسدي من التعب، وعلى أعصابي من التلف، وعلى عقلي من الإجهاد، واستسلمت أنا للّهفة في عيونهم، ولإحساس غامض في داخلي بالملل... ملل من كل شيء، فالأيام متشابهة، والأحداث متكررة، والأحاديث ممجوجة، والعالم يعيد نفسه، والبيت

الكبير الذي كان يضج بالحياة والفرح غدا خاوياً، فتحت عينيَّ فجأة على فراغ. كلهم ذهبوا. استقطبتهم دول المال والأعمال. فوطنهم في نظرهم هو المكان الوحيد الذي يفتقد فرصاً للعمل، وللأحلام، وللطموح، وللمجد وللحريه. أخطؤوا، واستمروا في الخطأ. قد يكونون نادمين، ولكنهم لن يستطيعوا التراجع، لن يستطيعوا. أنا أعلم، فهم أولادي وأعرف مايعتمل في أعماقهم. لقد اعتادوا الحياة هناك. اعتادوا التغيير والبدء من جديد بعد التأسيس والاستقرار صعب بالنسبة لهم هي طبيعتهم وأنا أعرفها.

لقد انفضوا من حولي بعد أن كانوا لي وحدي "نعم يادنيا. لي وحدي. لو سمعتني الآن أيتها الحبيبه سترددين قولك... لا ياخالد هي أمانة في أعناقنا وحسب... فأجيبك كالمعتاد... وفرَّطنا بها.

فيأتيني صوتك الغالي معقباً... لا يا أغلى الناس. لكل منهم حياة يحياها، ونحن هيأنا لهم السبيل الأمثل لتصبح هذه الحياة هي الأفضل.". أنا أعرف كل هذا، لكنني لا أريد أن أقتنع.

تشعر بي دنيتي فتصحو. صوتها لحن بديع أشتاق سماعه دائماً يقول: أتحتاج أي شيء؟

– البرد شديد هذه الليلة يادنيا أليس كذلك؟

تخرج دنيتي لتغلي لي الماء من أجل القربة. لا أستطيع أن أبقى وحيداً سألحق بها. خطواتي بطيئة. رحم الله أيام زمان. كنت أكره ركوب أية حافلة... المشي سعادتي. دمشق بشوارعها الرائعه تشهد علىهذا، ولكن، لكل زمان دولة ورجال... فأين أنا من هذا الزمان؟ لقد أنهت تعبئة القربة. ترى هل ستعود للنوم وأبقى أنا لأفكاري من جديد. هي ليلة لن تنتهي...أسير قبلها نحو غرفة المعيشة علها تتبعني وتنبئني أن النهار الجديد قد بدأ. تسير خلفي بعينيها المعبأتين بالنعاس وتقول:

– لم ينته الليل بعد أيها الغالي. تعال إلى السرير علك تنام.

– لنجلس ونتحدث قليلاً.

– سنقول مانشاء في النهار.

وأسير معها وأنا أعلم جيداً، أن لن يُغمض لي جفن فلقد أصبح الليل مشكلتي منذ ذهب الأولاد وغدا الظلام بوجهه الكالح ثالثنا أنا وزوجتي...لم أقتنع يوماً بزواج الأولاد. كنتُ أشعر بالخوف كلما أوشك أحدهم على الخروج من بيتي إلى بيت الزوجية أو السفر. تمنيتُ لو أستطيع أن أغطيهم بجناحيَّ مدى حياتي، وأن تظلَّ عيناي تستمتع برؤيتهم، ويهنأ قلبي بحنانهم ولكنها كانت دائماً تقنعني وتعوضني بحنانها وحبها. "عدتِ لأ ـلامكِ يادنيا

وابتعدتُ أنا بأفكاري إلى ذاك الزمان المليء بالدفءِ والحب والحنان"، كلما بقيت وحيداً أعود إليه، ولِمَ لا . غريب أنا عن زمانهم، وجسدي لا يستطيع الرحيل، فلأرحل بعقلي لأنسَ بأيام شبابي وقوتي وقدرتي على العطاء. لأيام كنت أحياها لحظة بلحظة. أعطتني الحياة ماكنتُ أتمنى وأكثر. أحببتها وحصلتُ منها على كل ما أردتُ وكانت دنيا إلى جانبي تهبني الحياة والسعادة... شريكتي في أفراح حياتي وأتراحها. أتساءل الآن تساؤل العارف متى نهاية المطاف؟ وإلى متى سأحيا في الماضي هرباً من الحاضر؟ عاجزاً أنا عن عمل أي شيء لعالم غدوت فيه ضعيفاً ينتظر الرحيل. ماذا بإمكاني إلا الرضى والترقب بقلب ضَعُفَ نبضه، وأحاسيس صارت تتعثر وهي تتلقى دفقات الحب، وعينين لا تريان إلا الأعماق، وهيهات بين ظاهر الإنسان وباطنه...

تعبت والظلام في الخارج مازال مسيطراً على العالم كما سيطر الظلم على مصير الإنسان. كم حلمت بحب يسود الكون وينشر السلام... تسعون عاماً وأنا أنتظر لا الحب ساد، ولا الظلم انتهى، ولا الليل هذا سينتهي... سأندس بجانبها وأحاول أن أغفو... (أوه يادنيا يازوجتي الحبيبة.. أنتِ مَنْ هَوَّنَ عليَّ مصاعب هذه السنوات، وعوَّضني عن سفر أولادنا. أتذكرين حين بدأ الأولاد

يكبرون كيف تمنينا أن يعمل، الكل في مشروع واحد، ونسكن جميعاً في بناء لكل منهم طابق فيه. لم أكن أعرف أنهم حين يكبرون سينفرد كل منهم بحلمه ويبتعد لتحقيقه. دون تدخل منا. كم حلمت بأسرة كبيرة يغمر قلوب أبنائها الحب، وحلمتُ أن تكبر في دمشق، ويظل حبها لدمشق وعشقها لدمشق كما كنتُ أنا، ورجوت دمشق أن تضم أبنائي وتحتضنهم ليهبوها حبهم، ونتاج جهدهم، ولكن هيهات فلا حلمي تحقق ولا أمنياتي؛ والآن أشعر بهم، ففي أعماقهم رغبة صادقة في رؤيتنا وإسعادنا، وتحقيق أمنيات تمنيناها يوماً وأعجزتنا التزاماتنا تجاههم عن تحقيقها. (دنيا أنا تعب ليتك تشعرين) تفتح عينيها. قلبها دائماً معي... تسألني...

- ما الذي يتعبك أيها الغالي. سأجلب لك الدواء.

تتحرك لتمضي... أوقفها...

-لا أريد دواء. كوني معي وحسب.

تجلس، وأجلس إلى جوارها. تمسك بيدي بلهفه.

- يدك ساخنه. دعنا نطلب الطبيب.

تهرع إلى الهاتف تطلب الطبيب الذي يجس نبضي.. جبيني ويصف الدواء... يهمس في أذنها. تضطرب. تترقرق الدموع في عينيها وهي تحاول التجلد، والتهرب

من ندائي، تخرج وتعود حاملة كوب العصير، والابتسامة مشرقة على وجهها، ولكن عيناها لا يستطيعان إخفاء مايعتمل في داخلها. تجلس بجواري. تسقيني بإلحاح قدراً منه، ثم تقنعني بالنوم. أحاول إرضاءها فأستلقي، وأغمض عينيَّ. تنتظر قليلاً ثم تبدأ بالاتصال بأولادنا. تزغرد الفرحة في قلبي الواهن. الحمدُ لله سيأتي أحباء قلبي. سأراهم، وأمتع عينيَّ بوجوههم التي عشقت وحُرمت. أوه، ما أروع أن أسعد بحنانهم دفعة واحدة. لا تُراني سأنتظر متى يصلوا..؟

ليت الله يهبني بعض الوقت لأراهم وأودعهم".. أشعر بيدها تلامس وجهي. أفتح عينيَّ لتصافح وجهها الذي أحببته، واعتدت رؤيته ستين عاماً، أستمتع بالكلمة... ستون عاماً وما مللتُ يوماً من رؤيته.

عيناهاممتلئتان بالدموع. لا تخافي علي يا دنيتي فعالمكم لم يعد يُغريني.

غدا لؤلؤة خبا وهجها وبريقها بالنسبة لي.من خلالك وحدك ظللت أرى الجمال. فكل ما عداكِ بعد ابتعادَ الأولاد وهم وخيال.

البيت عاد كما كان مليئاً بالحب. عامراً بالألفة والاهتمام. اللهفة تستوطن العيون المشتاقة القلقة. كلما فتحت عينيَّ أرى وجهاً لابنة أو ابن يحنو. يعطف. يُلبي

عيون تصرخ بالحب. آه كم افتقدت هؤلاء الأحبة. كيف استطعت الصبر؟ غريب أمر الإنسان...قدرته على التحمّل، وتقبّله للواقع أكبر من أن يعيه في حينه، الأحبة حولي ليل نهار، ودنياي لا تفارقني. يدعون الله بلهفة وأمل، والطبيب يحاول المستحيل. هم لا يشعرون كم أنا قريب منهم، وهانئ بينهم، لكنني أعرف أنني بين لحظة وأخرى سأبتعد، ولستُ أسفاً، فأنا ذاهب إلى حيث لا ندم. لا ملل، ولا فراق... حيث لا كذب. لا نفاق لا بؤس، ولا شقاء. حيث لا خداع. لا شقاق، ولا حزن... ولكنني سأظل معكم يا أغلى الغوالي. سأظل. في حلمكم، وفي صحوكم. في عقولكم. وفي ثنايا قلوبكم، فلماذا تحزنون؟ لن أفارقكم، فأنتم جزء مني، أنا أنتم. في كل منكم صفة من صفاتي، وفي وجه كل منكم لمحة مني. أنا أحبكم وذكرياتكم... أبتعد... صمت ممتع لم أعهده.

أبتعد.. إحساس رائع بالسلام لم أعرفه يوماً، ورضى يغمر قلبي،وعقلي وكياني كله.

أبتعد.. هدوء حانٍ يسكنني..

أبتعد... عيناي تريان جمالاً لا مثيل له، وأذناي تنصتان لألحان ساميه... ساميه..

ليتهم يعلمون... لمابكوا وما حزنوا..

أبتعد... السكينة تملؤني راحة، وحيوية، وسعاده..

أبتعد... مازالوا يبكون. ليتهم لايفعلون... لو يعلمون... لو يعلمون لما فعلوا..

أبتعد... صمت وسلام.

أبتعد... صفاء... صفاء...ونور يغمر كل شيء.

بداية السقوط

حين امتدت أيديهم إليه بالأوراق المالية... أصبحت الخطوط التي تغطي جبهته وأسفل عينيه أكثر عمقاً، فبدا أكبر سناً، وتوقفت حدقتا عينيه عن الحركة، فأصبح وكأنه جسد لا روح فيه.

سمع أحدهم يقول: ألا تكفي عشرون ألفاً؟ واستطرد سنضيف إذن خمسة آلاف أخرى.

ثم صوت آخر: سنعطيه خمسين، فهومخلص، ويستحق هذا المبلغ، كان أبو رامي يسمع مايقولون ولا يدري بم يجيب، فالموضوع أكبر من أن يستوعبه بهذه السرعة، وهذه البساطة، وهو لا يعلم ثمن ماذا هذه الأموال التي تُعرض عليه، فكل ماحدث أنه وصل متأخراً هذا اليوم على غير عادته فلم يشاهده أحد حين دخل البناء، وعندما سمع همساً في الطابق الأرضي ذهب نحو مصدر الصوت ليستطلع الأمر -فهو الحارس والمسؤول-

ولما اقترب من الباب وشاهده المجتمعون الثلاثة أصحاب البناء... أدخلوه، وعرضوا عليه هذه الأموال. هو لم يسمع مما قالوه شيئاً، ولكنهم لا يدرون.

أخذ أبو رامي يتساءل، والأيدي ممتدة إليه بالمال، والعيون المحملقة معبأة بالرجاء والتوجس... ترى ما الذي يخفونه، وعمن...؟

أم هي جريمة اقترفوها...؟

ولكن لم لا تكون نيتهم حسنة حقاً ويعتبرونه إنساناً خدمهم بأمانة فأرادوا مكافأته بهذا المبلغ الزهيد بالنسبة لأموالهم الطائلة...؟

لا... لا... لا يمكن فإحساسه، والوضع المحيط به يوحيان بأن خطأ ما قد حدث ويخافون إفشاءه من قبله، وهذا المال لإغلاق فمه، لذا يجب ألا يقبل فهو شريف، ويجب ألا يُطعِمَ أولادهُ إلا من مال حلال.

يتذكر ولده الصغير المريض... يحتاج لما أسموه قثطرة قلبية...

هو لا يدري ماهي ولكنه سأل عن المبلغ الذي تحتاجه، وحين ذكره له الطبيب شعر وكأن صاعقة سقطت عليه حجبت عنه الرؤية والسمع فأي مبلغ سيكون كبيراً بالنسبة له... أي مبلغ، فلم لا يُنجي ولده ويعالجه بمال

هؤلاء... مالهم حلال... حلال الفقراء أمثاله... بل لهم حق به.

تزغرد الفرحة في عينيه، وتصفو نفسه فقد توصل لقرار يُرضي قلبه وضميره... فلم لا يكون القدر هو الذي وضع في طريقه هذا اليوم بالذات هذا الحدث ليحصل على النقود ويُنقذ ولده... إذن مازال هناك بقية من عمر لولده، فالحمد لله... الحمدُ لله...

يبتسم أبو رامي بفرح، وتمتد يده ليمسك بالنقود فهي له. القدر هو الذي وهبها له...أَلْهَمَ الرجال الثلاثة ليعطوه المال وينقذ ابنه. تلمس يداه الحقيبة ثم ترتد فزعاً، وكأن ثعباناً لسعه فجأة... يظن الرجال أنَّ المبلغ قليل. ينظر كل منهم للآخر ويتهامسون ثم يقول له أحدهم بصوت أجش:..... مئة ألف... مارأيك لن نزيد ليرة أخرى. كفاك طمعاً.

تجحظ عينا أبي رامي، وتتسارع دقات قلبه، ويتصبب جسمه عرقاً، فيهمس بصمت ورجاء... يارب مائة ألف ليرة... مائة ألف ليرة.. لن أحصل على مثلها ماحييت...هي الإنقاذ لي ولولدي، وبقية أبنائي. رباه ألهمني الصواب... هي منك لابد يارب... منك يارب. سآخذها وأنفقها بما يرضيك يارب.

يتأملهم وهم يضعون الرزم الجديدة في الحقيبة إلى

جانب الرزم السابقة ويفكر... ترى ماذا فعلوا حتى يضحوا بهذا المبلغ دون مقابل مني...؟ ألأنني لا أدري أكون بريئاً من فعلتهم، ومالهم حلال لي.؟ وإنْ لم آخذ المال... كيف لي أن أعلم فعلتهم وأمنعهم؟

كان المال في أيدي المحيطين به يخطف لبه، ويُزيغ بصره،ويعقد لسانه، والأفكار تتلاعب به، وترمي به في هوة الحيرة التي لا قرار لها ليختار. إنه رجل مكافح. عمل جاهداً **ليُطْعم** أبناءه.

وقد يستطيع إتمام تعليم أحدهم إنْ تفوق... كان مقتنعاً أنَّ مقره في النهاية هو الجنة، فالحرمان في الدنيا مع الصبر يعني العطاء الكامل هناك: وراحة دائمة يفتقدها بعمله طوال النهار، فهو يعمل حاجباً في دائرة حكومية... يجلس خلف باب أحد المدراء، ويلبي طلبات بقية الأقسام في الطابق ذاته، لكن أحداً من قرينه لا يعلم نوع عمله. هم يعرفونه موظفاً مقيماً في المدينة، ولا يريدهم أن يعرفوا أكثر من هذا، ويسهر طوال الليل في عمل إضافي كحارس ليلي لأبنية لما تنتهِ بعد، ومع هذا لا يستطيع أن يفي بحاجات أولاده الضرورية كلها، فكيف بالكماليات التي يسمع بها وحسب، ويراها أحياناً مع الآخرين ويتمنى ولو يحصل على مثلها لأبنائه".

الأوراق المالية المزخرفة تتراقص أمام عينيه. تُغريه

بلمسها.. بضمها إلى قلبه المتلهف لرؤيتها منذ زمن طويل... رؤيتها بهذه الكثرة. بهذا الكم... رزم... رزم يالله ما أجملها؛ فما يراه عادة مجرد بضع مئات تشكل راتبه الشهري أو رواتب أصدقائه. أو حتى رواتب الموظفين الذين يعانون مثله.

أخذ أبو رامي يتأمل الأوراق المالية والحيرة كابوس يجثم فوق صدره. " هذه الأموال الوسيلة الوحيدة لتحقيق أمانيه، وقد تتكاثر لو استخدمها بمشاريع كما يفعلون فيغدو مثلهم غنياً قادراً.

لم لا... قد تكون بدايتهم مثله.... من أجل الأولاد كل شيء ممكن.

فلتلتقط يداه هذه الأموال، والوعد بالصمت سهل وممكن، فهو لا يعرف شيئاً وصمته بالتالي تحصيل حاصل، وبما أنّه لا يعلم شيئاً عنهم، فأين جريمته...؟

والرشوة شيء، وهذا المال شيء آخر لابد...

أأخبر الشرطة...؟ ولكن عن ماذا...؟ أأقول أنّ جريمة تدبر؟ ولكن ما ماهية هذه الجريمة...؟ قتل..؟ سرقة...؟ سياسة...؟ لا أدري... لا أدري، ستعتبرني الشرطة مجنوناً فهم يريدون على أقل تقدير الدليل. إنْ لم أعطهم معلومات.

يُمعن أبو رامي صمتاً وتفكيراً، والحيرة سرداب يغوص نحو أعماقه. هذا المال لماذا لا آخذه وأعطيه للشرطة وأقول لهم أنه قد قُدم لي كرشوة مقابل الصمت على جريمة، ووجود المال دليل على وقوعها.

تنفرج أسارير أبي رامي، فقد وجد الحل، ولكنه مايلبث أنْ يكتئب حين ترد فجأة على خاطره فكره... ماذا لو أنكروا علمهم بهذه الأموال، أو اتهموه بسرقتها...؟ فماذا يفعل وهو الضعيف، وهم الأقوياء؟

سحقت الحيرة أعصابه، وأوقف القلق تفكيره.فلبث في مكانه يرتجف.. ما العمل. ما العمل..؟ قلبه يختلج، ويداه ترتجفان والرجال يقفلون الحقيبة. يد أحدهم تمتد نحوه بها وهو يقول: أنت مستقيل منذ اليوم يا أبا رامي. إبدأ حياتك في أي مكان آخر.

تمتد يده بخوف وتحمل الحقيبه. يمضي الجميع ويبقى وحيداً، والتهمة في يده. قلبه يختلج. يستعذب الصراع، ويتوارى خلف كل المبررات. يفكر بفزع.. هذه الحقيبة أهي تهمة وذنب لاغفران له؟ أم هي قدر... قدر مكتوب؟

يضم الحقيبة المعبأة بالأمل الهش المخضَّب بالندم والخوف بلهفة محروم، وحرص بخيل،ويمضي نحو الخارج.

حب من نوع آخر

حملت راقية وسادتها كما يحمل المحارب المهزوم بقايا الراية الممزقة،وسارت تتلمس طريقها إلى غرفة المعيشة، علها تحصل على قسط من النوم بعيداً عن عيني زوجها أبي صالحٍ الطافحتين بالحزن، ويده الملتجئة والمتدثرة بيدها أبداً وندواه الدائم... راقية تعالي معي.. إبقي بجانبي. لا تدعيني أستسلم للنوم وأنت بعيده.. رافقيني".

ألقت بجسدها المتداعي على الأريكة، وحاولت أن تستسلم للنوم، ولكن عينيها ظلتا مسمرتين على اللوحة التي تتوسط الجدار المواجه لها، وكأنها تراها للمرة الأولى.

تمنت دوماً لو تنتزع اللوحة. تخفيها. تحرقها. أو تهشمها بقدميها. تمنت لو كانت لديها القدرة على محو

خطوطها وألوانها. محو العبودية الخبيئة في وجه المرأة الجاثية بخنوع فيها. محو تلك النظرة الصامتة في عينيها المستجدية رجلاً متقلاً بالصلف والغرور.

استدارت راقية حول نفسها، وأخفت وجهها بالغطاء لعلها تهرب منه، ومن نفسها، من أحلامها. من أحلامها التي مازالت تحتضر أمامها كل يوم.

كيف لم تصرخ يوماً في وجهه... في وجوههم؟

كيف استطاعَتْ أنْ تُمضي كل تلك السنوات تائهة في صحراء حياتها الموحشة، وتنازلت عن كل حقوقها، والتزمت بالواجبات. كيف،كيف؟

سمعت راقية صوت أبي صالح، فأحكمت وضع الغطاء، ولكن سعاله المتكرر جعلها تهرول إليه... راقية ألا تأتين معي؟ وتناول يدها بين يديه يضغط عليها ويقول... أخاف عليك الوحدة... ستضيعين بعدي في متاهات الحياة. تقاومين مدَّها وجزرها. يجتاحك الموج وتغرقين. خبأتك من الدنيا، وطويت عليك الأيام، فماذا دوني ستفعلين؟..تعالي معي"...

عيناها صامتتان مشبعتان بالحزن. مسكين هذا الرجل. يداه تتشبثان بيدها.لا يريد أن يمضي وحده. لو كان قادراً على أخذهامعه مرغمة لفعل. مسكين. كان يوماً

مالكاً قوياً سيداً، وكانت ظمأى للحياة.

لم يهو من الخلق إلا راقية. ولم يظلم منهم إلا راقيه.

في عينيها صرخة منتحبة، وجهها الصامت يمزقه الأنين،وصوته يخترق أذنيها كالمطارق. "ألا تأتين.؟ هناك لن أكون سيداً آمراً ياراقية. سنحلق إلى بقاع نائية عن عاداتنا الباليه. عن العيون المتعطشة للأوهام. ستغدين حره.حره. ماذا تقولين ياراقيه.؟ بماذا تأمرين؟".

وتظهر ابتسامتها كنور شاحب وسط ظلمة أيامها. الآن يريدها أن تقول وأن تأمر. تراه شعر بفداحة ظلمه؟ أم أنّه يريد إغواءها وحسب لترافقه إلى مقره الأخير كما يتمنى..؟

تدثره وتمضي لترتمي على الأريكة من جديد. جسدها منهك. منهك، لقد افتقدت منذ وهبته أنامل القدر مصيرها نشوة الراحة، ومتعة الاسترخاء.

أحكمت راقية إغلاق عينيها،ووضع الغطاء على رأسها وأذنيها، ولكن صور حياتها ظلّتْ تتدافع أمام عينيها المغلقتين بإلحاح لم تعهده يوماً. تُرى أدعوته غير المتوقعة لها لمرافقته إلى عالمه الجديد هي السبب؟ أم امتلاكه لساعات نهارها وليلها قد فجَّر بركاناً كان ينتظر منذ زمن؟...

كم كان كبيراً... كبيراً حين تزوجته. عندما وهبوه أحلامها. عمرها، وأيامها، وقالوا لها: "لا تقولي لا... تعيشين"... أو كانت تستطيع أن تقول لا وهي امرأة؟ فكيف وهي امرأة مطلقة؟.. "زواج بضعة أشهر، والتصقت التسمية كالعلقة بكيانها ومصيرها. رضخت راقية لأنها ابنة دمشق. ابنة الأم التي تفضّل الذكور على الإناث من أبنائها. تعطيهم الحرية، وتغض الطرف عن كل حماقاتهم، وتقسو على بناتها، ثم تبكي حزناً عليهم.

احتلت راقية منصب الزوجة الثانية في بيت أبي صالح الواسع. فقدحقق بها أمله وحلمه. جميلة هي وشابة، وهو يعشق الجمال. حدثته عنها أم أولاده. جلستْ في حضرته تصف له جمال الصبية القادمة للتو من استنبول والتي أسرت كلَّ من كان في استقبال حكمت خانم جارتهم.

كان الانبهار مازال مسيطراً عليها وهي تقول له.... وجهها يا أفندي. عيناها، لون بشرتها. الثوب الذي يحيط بقوامها. وأبو صالح يعرف مدى رفعة ذوق زوجته فذهب إلى والد راقية محمَّلاً بالمال، والمركز الاجتماعي المرموق، فقدموها له. لم يسألوا عن عمره، ولا كم طفلاً لديه... فالرجل لا يعيبه إلا جيبه"...

بدأ الفجر يرتعش مبدداً سواد الليل. هبت بضع نسمات صافية محمّلة بالندى، وشذى الوعد لتهب جسدها وروحها العطشى انتعاشاً، فقامت لتستزيد ولكنّ صوته دفعها إلى غرفته، ويديه الراجفتين "أتعدينني ياراقية أتعدينني ألا تحلّقي إلا في سماء صنعتها لك، وألا تدوسي إلا أرضاً فرشتها لأجلك... أتعدينني...؟". سحبت يدها من يده، وصوته كالمطارق في رأسها راقيه...راقيه.. هرولت والدموع تغمر وجهها. أحست برغبة في الموت تمنت لوتغمض عينيها، ولا تفتحهما ثانية في هذه الدنيا التي تحتويه.

لعلها لو مضت قبله تستطيع التحكمُ بمصيرها هناك. ترجو ربها ألا يُنصت إليه ويجمعها به كما يريد.. أما قالوا أنّ للرجل هناك أيضاً الكلمة الأولى، وأنه يخيَّر؟ "فماذا لو اختارها؟ شعرت بقلبها يرتعش، والغرفة تضيق بها. ارتدت ملابسها، وتناولت غطاء رأسها، وخرجت إلى ساحة الدار الواسعة المهملة. كان الفجر في استقبالها مستبشراً نشطاً. غمرها السكون، وتسلل النسيم الصباحي البارد متغلغلاً تحت الغطاء والرداء لينعشها ويبدد شيئاً من تعبها.

أبعدت راقية الغطاء عن وجهها بتردد، واستسلمت للفجر يهبها النور والهواء النقي، والسكينة. فكرت. سيغضب أبو صالح لوعلم، فهو يخاف عليها من أعين الناس، فما عاد السياج الذي أحاط به بيته الكبير بقادر علىحماية راقية من أعين سكان الأبنية العالية التي أقيمت حوله، وهو يريدها له. له وحده. يحبها، ولكن هي أتحبه..؟ رقيقاً كان ومن الممكن أن تحبه، ولكنه كرجال عصره يجب أن يقسو ليكون في نظر الجميع وخاصة زوجته رجلاً. رجلاً بمعنى الكلمة. وهي رقيقة مرهفة الإحساس ولا تحتمل.

أحست راقية براحة وهي تستنشق الهواء النقي ملء صدرها، وأخذت تتأمل الساحة الواسعة التي تتوسط الدار. مهملة صارت وصامته وكانت يوماً حديقة غنّاء تعج بالحياة. "في ظل العريشة كان أبو صالح يحتسي فنجان القهوة وهو يحتضن بعينيه راقيه، ثم يقطف من حبات العنب أكبرها وأحلاها ويضعها في فمها، وهو يقول: ما أجملك ياراقيه، وكانت هي بغريزة الأنثى تحاول إرضاءه فتلبس من الملابس مايحب، وتختار من الألوان مايسعده وتنسّق شعرها بالشكل الذي يعشق فتضع وردة على أحد جانبيه، أو تحيط جيدها بعقد من الياسمين، وتنصت بشغف

لكلمات الغزل والإعجاب التي يغمرها بها. بينما عينا أم صالح تنظران من بعيد تعاتب. تغضب. تحزن، وتصرخ احتجاجاً وتقول... "إعدل يا أبا صالح إعدل كما أُمرت...".

الذكريات عصافير تزقزق وتحط هنا وهناك. البحرة التي تقف بصمت وسط الساحة السماوية. كم كان يحلو لأولادها، وأولاد ضرتها الركض حولها، ورشق أوجه بعضهم بمائها العذب. مسؤولية الأولاد كانت من نصيب ضرتها وهي مهمتها أبو صالح وحسب.

أجالت راقية نظرتها بين شجرة النارنج، وشجرة الليمون، وأصص الزرع المنسية، وابتسمت بأسف وهي تفكر... مسكين أبو صالح ما استطاع يوماً إرضاءنا.. زوجته المهملة وأنا السجينة المحببة... نظرت إلى الأبنية الحديثة العالية حول بيتهم العتيق وفكرت.... كم تغيرت دمشق،وكم اكتسبت، ولكن في أعماقها ظلّتْ المدينة الأنثى التي اعتادَتْ الرضى، والمدينة الأم التي تُعطي وتهب ولا تطلب من أبنائها المقابل.

الصمت اخترقته همهمة الحياة وراء الأبواب المغلقة، وصوته الهامس عاد يملأ رأسها... راقيه... راقيه...

مضت إليهِ، واستسلَمت يدها من جديد ليده الممدودة. النظرة المستجدية في عينيه، وفمه يردد... ليتنا نمضي يا راقية معاً".

أغمضت راقية عينيها لتبتعد عنه. لتحيا مرة ولو من خلال هذا الجزء الصغير من كيانها. الجزء الوحيد الذي تملكه. الذي يستطيع أن يحملها على جناحين من حرير إلى أي مكان تشاء. نهضت وذهبت إلى غرفتها وصوته يملأ مناحي البيت... راقيه... راقيه... صمَّت راقيه أذنيها عن ندائه، فهي يجب أن تنام. أن ترتاح... تر..تاح...

قام أبو صالح بخطوات متثاقلة يسير نحو غرفتها. فوجئ بها مستغرقة في النوم وقد سقطت إلى جانبها لوحة الجدار التي ظلَّت تتصدر غرفة المعيشة سنوات، وكانت صورة الرجل البادي في اللوحة... ممزقة الوجه.

الفهـــرس:

إهـــداء.. ..... ٣
١. ذلك المســـاء.. ..... ٥
٢. غريبة.. فوق أهداب دمشق ١١
٣. حريتي.. حصان جامح..... ٣٣
٤. مطلوب حكواتي ٤١
٥. خاتم سليمان ٤٩
٦. مـــاريـــا ٥٧
٧. نحو النور ٦٥
٨. بداية السقوط..... ٧٥
٩. حب من نوع آخر ٨١

رقم الايداع في مكتبة الأسد - الوطنية

غريبة فوق أهداب دمشق:.قصص/ وفاء عزيز أوغلي-
دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩-
٨٩ص ؛ ٢٠سم .

١- ٨١٣,٠١ أ و غ غ ٢-العنوان

٣ - أوغلي

ع -١٧٢٨/١٠/١٩٩٩ مكتبة الأسد

□□

اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق

اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق

هذا الكتاب:

تبحر هذه القصص وتجول في العوالم الإنسانية والاجتماعية الخاصة بالمرأة وتقف عن همومها وتطلعاتها والعقبات التي تواجه حياتها.

والروح الأنثوية هي التي تمنح القصص وقتها، ورهافتها وبعدها الشفيف على الرغم من الموضوعات الشائكة والصعبة التي تقدمها القصص باعتبارها تشكل إطاراً وجوانية لحياة المرأة عبر دمج الأزمان الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل.

□□□

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق

ثمن النسخة (١٠٠) ل.س في القط
(١٢٥) ل.س في الوطن العربي

غربة فوق أهداب دمشق (قصص)

لوحة الغلاف وتصميمه: عبدالله أبو راشد